موتائیل

شابان بون کافیه

مُوتَائِيلْ (رواية)

أحمد عبدالله البحراني (كاتب من سلطنة عمان)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2202.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 65620722.797162720(962+)
alaan. publish@gmail. com،
alaanpublishers. com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-473-3

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(778/ 2/ 2022)

813.03

البحراني، أحمد عبدالله

موتائيل: شابان بون كافيه / أحمد عبدالله البحراني. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(158) ص

ر. إ: 778/ 2/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

أحمد عبداللَّه البحراني

موتائيل

شابان بون كافيه

روايـة

هل الواقع هو ما تراه أعيننا، أم أن ما يجري في الكون مختلفٌ تماما، وكثيرٌ جدّاً ربما، على معالجات عقولنا القاصرة، لما يصلها من حواسنا المحدودة؟

هل يتقاسم الزمان والمكان معنا، من يتدخل في أفكارنا وقراراتنا ورغباتنا ومصائرنا، أم أننا من يصنع أقدارنا؟

هل حصتنا من كل شيء ثابتة؟ أم أن هناك ما لم نطّلع عليه بعد، يجعل من المسألة عرضًا وطلبًا، بشروط ربما سنعرفها؟

ثم؛ هل نحن كما نُريد، أم كما يُراد لنا أن نكون؟

أحمد

الإهداء،،

إلى شقيقي محمد ،

ذي العشرةِ أيامٍ والساعتينِ والخمس دقائقَ،

عندما أخبرهُ **موتائيل** قبل سبع وخمسينَ سنةً،

بأنَّ لهُ مُرضِعةً في السماء

(1)

«خيوط ضوء سوداء تتداخل مثل ضفيرة وهي تلاحق نقطة مقعرة حمراء، تنشطر إلى نقطتين مقعرتين كلما اقتربت الأضواء منها. تنقسم الأضواء إلى ضفيرتين تلاحقان النقطتين المقعرتين اللتين لا تلبثان أن تندمجا في نقطة مائعة كقطرة زئبق، بمزيد من التقعر والاحمرار. تتداخل ضفيرتا الضوء من جديد في ضفيرة واحدة حالكة السواد، تُطارد ذات النقطة المقعرة الحمراء، فتنقسم مجددا إلى نقطتين مقعرتين، وتنقسم وراءها ضفيرة الضوء إلى ضفيرتين، في تكرار يعمّق سواد الضوء، واحمرار النقطة المقعرة لدرجة تبعث على الغثيان والتقيؤ».

غمرته سعادة رغم اضطرابه ولهاثه وتسارع دقات قلبه، حين أدرك أنه كان يحلم. منذ يومين والصداع النصفي يعصف بجانب رأسه الأيمن. كلما سكنت نوبة جمحت به نوبة أخرى، كأنه في قارب شراعي صغير وسط محيط مضطرب. حينما استيقظ، لم يجد زوجته استشارية العيون في مستشفى شارل نيكول، فقد سبقته إلى عملها. جلس على السرير وأصابع قدميه تنغرز كالمسامير في قطعة فرو صغيرة تُحاذي السرير، بينما كلتا يديه تضغطان على جانبي رأسه مثل كمّاشة كبيرة. نظر إلى ساعة هاتفه، فوجد أنه لا تزال هناك خمس وأربعون دقيقة متبقية عن بدء محاضرته. قام على عجل متجاهلا كعادته صداعه النصفي، وبدَّل ملابسه وخرج من الغرفة. وقبيل خروجه من الشقة، دخل المطبخ وتناول علبة

بسكويتِ كانت موضوعة على طاولة بيضاء مستديرة، يتحلَّق حولها أربعة كراسيَّ اثنان منها بمسند ظهر منخفض، اعتاد أن يعلق على أحدهما الجاكيت أثناء إفطاره. خرج من الشقة الواقعة في الدور الخامس في أحد المباني الحديثة المطلة على شارع الحبيب بورقيبة، وعبْر باب زجاجي ينفتح تلقائيا للأشخاص الخارجين. بينما يتوجب على الداخلين إلى المبنى طبع رقم سري على لوحة مفاتيح صغيرة مثبتة على مدخل المبنى من الخارج، فلا يمكن لغير سكان المبنى ومعارفهم الدخول، وجد نفسه في شارع الحبيب بو رقيبة، أجمل شوارع العاصمة تونس وأكثرها صخبا وحياة. معظم المباني المطلة على ذلك الشارع الحيوي، مبانٍ راقية وحديثة بواجهات زجاجية تحتل الدور الأرضي منها محلات لأشهر الماركات العالمية. وتنتشر على ضفافه أفضل المقاهي التونسية التي باتت تستوعب معظم الشباب الذين بسبب الظروف الاقتصادية، وجدوا ضالتهم على كراسيها وهم يتطلعون إلى عمل يُخلّصهم من فراغ الوقت والجيب. توجه إلى محطة الحافلات ولم يطل فيها انتظاره. في الحافلة، عرفه بعض طلبة جامعة 9 أفريل، فوقف أحدهم فاسحًا له الكرسي. شكره بإيماءة سريعة وجلس مكانه. نزل من الحافلة قريبا من الجامعة التي تقف أمامها بعض أشجار الظل. كان يمشي في عجل على الرغم من أنه لم يكن متأخراً لكن بسبب طبيعته النظامية جداً، كان منزعجا من توقيت حضوره هذا اليوم. وهو في طريقه إلى الجامعة مرَّ بشجرة تحتها كرسي خشبي ولم ينتبه إلى عدد من الطيور كانت واقفة على الكرسي إلا

حين تطايرت في وقت واحد أثناء مروره بمحاذاتها. خطا عدة خطوات، ثم توقف وعاد إلى الكرسي ووضع قطعتين من البسكويت على طرف المقعد سحقهما بإبهامه مسهّلاً على الطيور التقاطها بأريحية وعدالة، ثم مضى في طريقه. بعد بضع خطوات استدار ملتفتاً للوراء، فشاهد الطيور وهي تتعارك في ما بينها على فتات البسكويت. راق له المنظر، فأخرج هاتفه والتقط صورة لها، ثم تابع طريقه إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. كان بعض الطلبة قد أخذ مكانه على مدرجات القاعة، والبعض الآخر لم يصل. إذ ما زالت هناك بضع دقائق على المحاضرة التي تبدأ في الساعة الثانية ظهراً، وتمتد لساعتين. في محاضرته تلك، تحدث عن مسيرة حياة الإنسان وصرعاته بين الموروث والمكتسب. وكان مما قاله: إن الإنسان يولد وليس بوسعه اختيار كل شيء. كما أنه في المقابل لا يرث كل شيء. فكما أنه ولد ولم يختر أمه وأباه والبقعة الجغرافية التي يولد فيها. ولم يُخيّر في لون بشرته ومن هم أقاربه، والوضع الاجتماعي والمادي لعائلته، إلا أنه يستطيع من خلال سعيه في الحياة تغيير بعض هذه الموروثات، وإضافة مكتسبات جديدة لها. كالمستوى المعرفي والمادي. حتى مكانته الاجتماعية يمتلك الإنسان بعض الأدوات التي تمكنه من تغيير موقعها وتصحيح بعض مساراتها. في المقابل تبقى هناك ثوابت لا حيلة له مهما حاول تغييرها، كأقاربه ولون بشرته وطول قامته وجنسه. مستعرضا جزءا من شخصية المناضل السياسي الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا الذي ولد في عائلة من ذوي

البشرة السوداء تنتمي إلى مجموعة مضطهدة في جنوب إفريقيا. إلا أنه قاد حملات ضد هيمنة البيض، وبسببها زُج به في السجن الذي قضي بين قضبانه أكثر عن عشرين عاما. لكن بما أنه كان مؤمنا بقضيته، ولم يتنازل عنها رغم كل الضغوطات، عاد ليكون أول رئيس أسود لجنوب إفريقيا. وأصبح من الشخصيات القليلة المؤثرة في العالم في القرن العشرين، فضُرب به المثل في الكفاح والإصرار والصبر وتقرير المصير.

وبينما كان مستمرا في إلقاء المحاضرة، سمع صوت طالبة تستأذنه رافعة يدها:

- لو سمحت دكتور.
- تفضلي يا رقية.

وقفت رقية بأناقتها المعتادة وجمالها الساحر وذكائها المتقد. فلوت أعناق جميع زملائها الطلبة باتجاهها، مثيرة غيرةً وهمهماتٍ عجزت زميلاتها عن إخفائها. قالت بنبرة واثقة:

- معنى كلامك أن الله الذي يأمر بالعدل، ظالم!! فما ذنب الذي يولد معاقا؟ وما ذنب الذي يولد فقيرا؟ وما ذنب الذي يولد ببشرة سوداء؟ وما ذنب الذي يولد في أقليات عرقية مضطهدة أو منبوذة أو مكروهة؟ ما ذنب هؤلاء جميعا؟ كما أنني واثقة أن هناك الكثير ممن تمنوا لو أنهم لم يولدوا أصلاً في البيئة التي وجدوا فيها، أو الظرف، أو حتى العائلة والمجتمع الذي رأوا أنفسهم فيه بلا حول منهم ولا رغبة!!

عقب على كلامها قائلا: «قد يكون كلامك منطقيًا، لو نظرنا إلى حياتهم من زاوية واحدة فقط. بينما لو....».

لكنه قُبيل أن يكمل تعليقه على تساؤلات رقية التي أشار لها بالجلوس، لاحظ أن وقت المحاضرة قد انتهى. إذ إن الساعة في أعلى المدرج تشير إلى الرابعة وثلاث دقائق. فأضاف:

- لا بأس يا رقية، سأجيب على جميع تساؤلاتك في المحاضرة القادمة.

وافقته رقية مشترطة عليه أن يكون الرد في القاعة وأمام الجميع، لتتسنى الفرصة لمن يريد النقاش أو إبداء رأي ما. علق مبتسما: «ليس لدي أي مانع في ما طلبتِ»، ثم غادر القاعة.

في طريق عودته مر بالقرب من ذات الكرسي الذي وضع عليه قطعتي البسكويت. لاحظ أن الطيور قد أكلت القطعتين إلا كسرة صغيرة سقطت عند إحدى أرجل الكرسي لم تتنبه إليها الطيور. حين انحنى يأخذ الكسرة ليضعها على الكرسي، شاهد عشرات من النمل متحلقة حولها وفوقها، فتبسم وأخرج هاتفه والتقط صورة للنمل ثم قفل راجعا.

وصل إلى الشقة، فراوده إحساس بالبهجة الغامرة كأنه يدخلها لأول مرة. لقد انتقل إليها وزوجته قبل سنتين تقريبا، واعتنيا بتأثيثها كثيرا. باب الشقة خشبي تتوسطه قطعة نفيسة من الزجاج المعشق بألوان متناغمة، وعلى يساره تحت مفتاح الجرس تماما، لافتة خشبية تغلفها من الأمام قطعة نحاسية مكتوب عليها بلغة فرنسية أنيقة، وفي خط أفقي واحد،

«د. رشيد & د. منال». يستقبل الداخل إلى الشقة على الجانب الأيمن طاولة كونسول من الخشب المعتق، عليها رأس من الرخام الأبيض لمايكل آنجلو، وإناء من الخزف فيروزي مزخرف ومذهب الحواف، يضعان فيه المفاتيح والعملات النقدية المعدنية. وبينهما تستلقي بجلال آلة الكلارينيت، وهي آلة موسيقية نفخيّة ابتاعها من باريس أيام دراسته الجامعية العليا. ويحلو له العزف عليها في أوقات فراغه التي تزداد شُحّا بسبب ضغوطات عمله من جهة، وتكرار نوبات الصداع النصفي من جهة أخرى، التي أجبرته لا سيما في الأشهر الأخيرة على استخدام وسائل النقل العامة رغم سخطه من زحمتها، عوضا عن استخدام سيارته الرينو- التي وجدت تحتها بعض القطط بيتا آمنا لها- في معظم تنقلاته حينما يكون لوحده. يعلو الكونسول صورة علوية ليلية كبيرة لباريس. تبدأ بدوّار قوس النصر والطرقات المتفرعة منه وإليه، وفي البعيد يقف برج إيفل شامخا مثل شمعدان كبير. وعلى جانبي الطاولة وضعا كرسيين من طراز لويس السادس عشر. فوق كل كرسي مصباح جداري ذهبي يتدلى للأسفل ليستريح ضوؤه الهادئ على مخمل الكرسي. كانا قد انتقلا إلى الشقة قريبًا وقاما بتأثيثها على الطراز الأوروبي، ومعظم المقتنيات فيها منتقاة بعناية فائقة جدا. بعد طاولة الكونسول يقع المطبخ على اليمين مفتوحا على صالة واسعة مؤثثة بأناقة باروكية كلاسيكية. تتدلى من سقفها أربع ثريات من الكريستال البلجيكي، ويقف متيقظا في إحدى الزوايا تمثال من الجرانيت الأسود للقط الفرعوني «باستت» حارس كنوز

الفراعنة، يتدلى من أذنيه قرطان كبيران، ويحيط بعنقه عقد كبير تتعلق في وسطه شمس، جلباه من مصر. يحرس هذا القط المهيب، طقم جلوس فاخر من خشب الزان المذهب والمفروش بقماش مخملي ملكي أحمر، تتوسطه طاولة دائرية من خمسة أرجل خشبية منقوشة مذهبة، تجثم عليها قطعة رخام أحمر ماروني، وضعا عليها مشغولات يدوية وبعض التحف من الزجاج المواراني الإيطالي المنفوخ بالفم. دخل المطبخ وملأ الإبريق الكهربائي بالماء، ثم دلف إلى الغرفة يغير ملابسه. رجع إلى المطبخ ثانية وأعد له كوبا من الشاي بالنعناع، ومشى في الصالة منتشيا برائحة النعناع المختلطة مع البخار المتطاير من كوب الشاي، وكأنه يؤدي طقسا صوفيا مقدسا. مرورا بالصالة الأنيقة التي تنتهي بباب زجاجي كبير متوارٍ خلف ستارة خفيفة من الشيفون الأبيض، خرج إلى شرفة واسعة حوَّلها هو وزوجته إلى حديقة صغيرة. جلس على أحد الكرسيين المصنوعين من أعواد الخيزران، ووضع كوب الشاي على زجاج الطاولة المستديرة متأملاً من خلال الدربزين الزجاجي الشفاف شارع الحبيب بورقيبة، ومحاطا بالشجيرات الخضراء التي تتوزع على أرضية الشرفة الفسيفسائية، وتتدلى بعضها من سقف الشرفة مع قفص يصدح فيه زوج من العصافير. كان دائمًا ما يحب انتظار زوجته التي غالبا ما يسبقها، إلى هذه الشرفة، مستمتعا بارتشاف الشاي أو القهوة، ومالئا رئتيه بالهواء العليل، ومتأمّلا حركة الناس والسيارات في الشارع من الدور الخامس الذي يوفر له زاوية نظر بانورامية ساحرة. كانت هذه الشرفة بإطلالتها

المذهلة من أهم الأسباب التي جعلتهما يتمسكان بشراء هذه الشقة وبيع القديمة، إضافة إلى قدم شقتهما السابقة الذي كان غطاءً لسبب حقيقي لم يصرحا به حتى لبعضهما بعضا؛ ألا وهو نظرات الشفقة والعطف التي كانت تلاحقهما من الجيران، بسبب عدم إنجابهما رغم زواجهما الذي شارف على ثلاثة عقود!!

(2)

الساعة الخامسة عصرا، بداية وقت الذروة في شارع الحبيب بورقيبة، فيزدحم بالسيارات ويكتظ بالمارة والمتسوقين والمتنزهين والعازفين حتى ساعات متأخرة من الليل. كان لا يزال جالساً في الشرفة مستمتعاً بالمنظر الذي يطل عليه، ويرتشف الشاي. يفصل بينه وبين المباني التي تقابله أربعة صفوف من الأشجار الخضراء على طول الشارع. وفي الأفق الأزرق بعض الغيوم المنتشرة هنا وهناك، صبغتها الشمس التي شارفت على التواري خلف المباني المقابلة، تزفها بعض الطيور باللون البرتقالي. وبينما هو يرتشف الشاي وأمامه ذلك المنظر البهيج، حدث له أمر غريب جداً. إذ فجأة؛ جمُد كل شيء أمامه، كل شيء. بدا الناس في الأسفل أمامه كالتماثيل الصغيرة، والسيارات كأنها مكعبات مختلفة الألوان والأحجام ملتصقة بالأرض. حتى الطيور تعلقت في الهواء ثابتة دون أن تسقط. أحس وكأنه جالس أمام لوحة فنية عملاقة. أغمض عينيه وفتحهما، تلفَّت يميناً وشمالاً، كل شيء جامد تماما. نظر إلى العصفورين في القفص فرآهما وكأنهما محنطان. دقق النظر في ساعته فوجدها واقفة عند الخامسة وخمس دقائق. ثم لاحظ أن الأصوات أيضا اختفت، وأحس بصمت ثقيل يطبق على أذنيه. حاول أن يستوعب ما يحدث أمامه لكنه عجز أن يجد تفسيرا واحدا. الأمر الذي ملأه رعبا فوق ما هو فيه من حيرة وهلع، أنه حين نظر بعيداً وراء الغيوم، رأى مخلوقاً غريباً ضخماً جداً له عين

واحدة تنظر إليه بشكل مرعب. لدرجة انه مذ رآه تيبّس مكانه على الكرسي كأنه قطعة خشب. كان ذلك المخلوق العجيب متجها نحوه مثل طلقة مسدس، وعينه الوحيدة مصوبة كالسهم في عينيه المنفتحتين عن آخرهما مثل عيني سمكة ميتة. الأكثر غرابة أن هذا المخلوق كان ينطلق نحوه بعكس قوانين الفيزياء. إذ إنه كلما اقترب منه صغر حجمه. حاول أن يصرخ. بل لقد صرخ مراراً، لكنه لم يكن باستطاعته حتى أن يسمع صرخاته، إلى أن وقف ذلك المخلوق الغريب أمامه، حاجبا عنه كل شيء عداه. قال بصوت مخنوق دون أن يفتح فمه، أو يحرك لسانه، ودون حتى أن يتمكن من سماع صوته:

- من أنت؟؟

فجاءه صوت ساخن جدا، وكأن رصاصا مُذابا يُصب في أذنيه:

«أنا موتائيل».

استغرب وقال في نفسه:

- مووووتاااااائيييييييل؟

رد عليه بصوت مثل قعقعة الرعد:

- أجل موتائيل.

فقال:

- إني لا أفهم شيئا مما يحدث.

عادَ الصَّوتُ، لكنَّه منخفض عن السَّابق، قائلًا:

- هذه آخر لحظة لك في هذه الحياةِ وستموتُ الآن.

أَحَسَّ بثقلٍ شديدٍ جعله يتصبَّب عَرَقًا، ثمَّ تساءلَ عن سبب تجمُّد كلِّ شيءٍ أمامَه. أجابَه بأنَّ كلَّ شيء على طبيعته. «لماذا إذن كلُّ شيء أمامي في حالة سُكون وجُمود؟»، وبحركةٍ من إحدى أيادي موتائيل الَّتي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وكأَنَّه يُزيح ستارة، انزاح جزءٌ من تلك الصُّورة الَّتي أمامَه، فبانَتْ له الحياة طبيعيَّةً جدًّا خلفَ تلك الصُّورة. الشَّمسُ قد غربَتْ، واللَّيلُ بدأ ظلامُه يعمُّ الوجود. ثم سحب موتائيل يده، فعاد ذات المشهد الجامد مرة أخرى. ارتعب كثيرا وأصابته رجفة من الهلع، وتوسل لموتائيل كي يعطيه فسحة من وقت. أخرج موتائيل ملفين أحدها كبير والآخر تحته صغير وأوراقه قليلة. فتح الملف الكبير وعينه تتأرجح بين د. رشيد والملف.

بعد وهلة بدت له كأنها دهرا، قال له موتائيل:

- لقد أطعمت بعض الطيور اليوم أليس كذلك؟

رد بلهفة: «نعم وعندي دليل في هاتفي».

- لا نحتاج إلى هاتفك –قاطعه موتائيل– فقد كانت ثلاثة عشر عصفورا، منها أربع إناث وتسعة ذكور. وأيضا سبع وخمسون نملة. وفي هذه الحالة بإمكاني إعطاؤك مهلة.

ثم بدأ في الابتعاد بالسرعة التي جاء بها. وكلما ابتعد كان يكبر إلى أن تماهى في السماء. وقف كمن تحرر من قيوده وصرخ بصوت استطاع سماعه هذه المرة: «متى ستأتي في المرة القادمة؟»، ولكن كل شيء كان قد اختفى. فجأة تكسرت الصورة التي أمامه كأنها شاشة زجاجية أصابتها

قذيفة مدفع. انتبه وقد أظلم الليل وكل شيء أمامه بدا طبيعيا كأن شيئا لم يكن. أخذ رشفة من الشاي فوجده مراً وبارداً جداً. في الوقت نفسه وصلت زوجته إلى الشقة فتعجبت من الظلمة التي تغمر المكان. عرفت من تطاير شيفون الستارة أن باب الشرفة الزجاجي مفتوح. أشعلت المصابيح ووضعت حلقة المفاتيح في الإناء الخزفي. وبدأت تقترب رويداً رويداً وبوجل من باب الشرفة. وجدته جالساً على أحد الكرسيين بوضعية وكأنه أُلقي به من شاهق. كلمته لم ينتبه. هزّته من كتفه:

- رشيد.. رشيييد.

التفت إليها بعينين مذعورتين، وقال متسائلا:

- منذ متى وأنت هنا؟

- لقد وصلت للتو. ما بك؟ كما أني أرسلت لك أني سأتأخر هذا اليوم، وحين وجدتك لم تقرأ الرسالة، اتصلت بك مرتين دون أن ترد.

قال لها بهدوء متصنّع: «يبدو أنني نمت في الشرفة».

تركته زوجته لتعد العشاء، وبقي هو في الشرفة مشوشا وغير قادر على استيعاب ما حدث له. هل كان حقيقة، أم مجرد خيالات عقله الذي أنهكه الصداع النصفي؟ حاول أن يقف، لكن دوارا حادا أوقعه على أرضية الشرفة بين الكرسي والطاولة. أثار صوت سقوط كوب الشاي، وتكسره على أرضية الشرفة هلع زوجته التي أتت إليه مسرعة. ساعدته على النهوض ودخول الصالة وهي ممسكة به من ذراعيه، إلى أن اضطجع

على إحدى صوفاتها. لاحظت بعد أن أحضرت له كوب ماء أن جبينه متعرق وجسده بارد تكسوه صفرة. مسحت وجهه بمنديل، وسألته بعد أن يئست من محاولة إقناعه بالذهاب للمستشفى، إن كان يشعر بشيء. طمأنها أنه بخير، وليس في الأمر ما يدعو للقلق. كل ما هناك أنه يشعر أن كل شيء حوله يدور بسرعة، وكأنه في مركز إعصار. طالبا منها أن تُطفئ إضاءة الصالة، وتدعه ينام قليلا. تركته مرغمة، ودخلت المطبخ تعد العشاء وبالها مشغول به كثيرا. بعد أقل من ساعة أفاق من غفوته، وكان الدوار لم يسكن تماما، إلا أن باستطاعته النهوض. وقف متثاقلا وكأنَّ على كتفيه جبلين. مشى مترنحا إلى المطبخ، وجلس على أحد كراسي طاولة المائدة. سرّت زوجته عندما رأته، رغم تغير لون وجهه وعينيه اللتين توحيان بأنه ليس على ما يُرام. سألها عما إذا رأت هاتفه. فذهبت إلى الشرفة وعادت وفي يدها الهاتف، وبمجرد أن وضعته أمامه، تناوله وفتحه، فرأى العديد من الرسائل والمكالمات التي لم يرد عليها. تعجب كيف لم يسمع رنين الهاتف رغم أنه لم يكن في الوضع الصامت؟! قال لزوجته وهو يحاول أن يكون على طبيعته قدر المستطاع:

- لماذا تأخرتِ اليوم؟

بعد أن رمقته بنظرة متفحصة، قالت:

- في حدود الساعة الخامسة تقريبا، أحضرت سيارة الإسعاف فتاة تعرضت لحادث دهس. كان الزجاج يملأ عينيها خاصة اليمنى.

فكان لا بد من إخراجه منهما. لكنها للأسف توفيت بينما كنت أقوم بتنظيف عينيها من الزجاج.

حينما كانت زوجته تخبره، لاحظت أنه شارد الذهن ولا يشاركها الحديث كعادته. نظرت إليه بارتياب وسألته:

- ما بك؟ لست على طبيعتك أبدا.
- لا شيء فقط أنا جائع.

بعد العشاء، طلبت منه أن يوقظها إذا أحس بشيء غير طبيعي، ثم استأذنته ودخلت لتنام، فقد كانت متعبة جدا بسبب طول فترة عملها ذلك اليوم. بقي جالسا في المطبخ والأفكار تعصف في رأسه. وجميعها كانت حول ما رآه وسمعه في الشرفة. وعندما لم يجن من تلك الأفكار سوى أنها زادت من حدة الصداع في نصف رأسه، تناول قرصا مُسكّنا ودخل لينام. لم يستطع تلك الليلة النوم بشكل طبيعي وقدر كافٍ. فقد تناوب عليه الصداع النصفي، وشبح موتائيل المرعب. في الصباح، بدا لزوجته طبيعيا إلى حد ما. تناولا فطور الصباح معا. عرضت عليه أن توصله بسيارتها إلا أنه شكرها بحجة أنه ربما سيتأخر، كما أنه بدأ يستأنس بالمفارقات التي تدور بين ركاب الحافلات. قبّلته وذهبت إلى عملها وهي تؤكد عليه أن يتصل بها في حال عاوده الدوار مرة أخرى.

بعد نصف ساعة من ذهاب زوجته، خرج من الشقة متجها إلى الجامعة. حين دخل كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، لاحظ تجمعات للطلاب هنا وهناك بشكل مغاير عما اعتاد عليه. مرَّ قربه بعض من طلبته

فسألهم ما الأمر؟ أجابه أحدهم وكان اسمه فاروق: «البركة فيك يا دكتور». هز رأسه مندهشا. «عذرا يا دكتور ربما لم يصلك الخبر، زميلتنا رقية توفيت عصر الأمس في حادث دهس». أطرق أرضا غير مستوعب الخبر.

تذكر أن إحدى المكالمات التي لم يرد عليها كانت من عميد الكلية. مشى ببطء يجر قدميه، وجلس على الكرسي الخشبي الذي وضع عليه قطعتي البسكويت بالأمس. كان مصدوما من الخبر، ومتأسفا جدا على رقية التي شاء لها القدر تلك النهاية البشعة، وهي في مقتبل العمر وفجر الشباب. تذكر مرحها وحماسها وزهوها بنفسها. تذكر حواراتها منتقاة الألفاظ، ونقاشاتها في شتى القضايا، واستماتتها أحيانا لإثبات صواب وجهة نظرها، مستعينة بزخم من الاستدلالات الفلسفية التي كان يُنهيها غالبا بعبارة: «أنت اسم على مسمى يا رقية. ولا شك أن هناك مستقبلاً جميلاً وأسرة سعيدة ينتظرانك». أخرج هاتفه وقرأ الرسائل التي جاءته بالأمس. كانت صورة موتائيل المرعبة تتراقص أمام عينيه، وتدغدغ الصداع المتثائب في رأسه، والذي بدأ أخيرا يحزم حقائبه استعدادا لرحيل مؤقت. صوت العصافير على الشجرة ذكَّره بالصورة التي التقطها للعصافير بالأمس. أخرج هاتفه، وفتح ألبوم الصور. تمعن في الصورة التي التقطها بالأمس للعصافير. بمجرد أن حسب عدد العصافير في الصورة، فتح فمه مندهشا، لأنه وجدها 13 عصفورا. وهو ذات العدد الذي أخبره به موتائيل بالضبط. أربكه الأمر كثيرا. وحاول أن يجد تفسيرا

منطقيا لما حدث، لكن دون جدوى. بينما هو غارق في حيرته، مر من أمامه أحد طلابه لم يستطع أن يستحضر اسمه. فأشار إليه بيده يستوقفه. سأله عن توحيدة، صديقة رقية المقربة. أخبره الطالب بأن انهياراً عصبياً أصابها، خاصةً أنها كانت مع رقية، وشاهدت الحادثة بأم عينيها. كان مرهقا، وذهنه مشوشا كثيراً، فرأى أن من الأفضل أن يعود إلى شقته لعله يستطيع النوم.

(3)

دخل شقته، ومن دون أن يغير ملابسه، أعد فنجانا من القهوة، وأخذه ليشربه في الشرفة. لكنه حين سحب باب الشرفة الزجاجي، ووضع قدما واحدة في الشرفة، توقف مكانه، وكأن شيئا ما أمسكه من قدمه الأخرى. بقي واقفا لوهلة، ثم تراجع شبه مرغم عن الخروج إلى الشرفة، وجلس في الصالة يشرب القهوة ويده الأخرى تعبث بجهاز تغيير قنوات التلفزيون إلى أن غلبه النعاس فنام مكانه. رأى في منامه أنه أمام الجامعة، جالسا على الكرسي ذاته الذي أطعم الطيور عليه. فجأة رأى رقية واقفة أمامه بكامل أناقتها غير أن شعرها منفوش، وقدميها حافيتان ومحمرتان كأنها كانت تركض على أرض ساخنة، هاربة من شيء ما يُلاحقها. وثب واقفا وهو في حالة من الدهشة، وقال لها:

– سمعت أنكِ متِ بالأمس في حادث دهس.

فأجابته وهي تلهث، وبدا له أنها سُرت لرؤيته:

– أنا بخير كما ترى.

طلب منها بعد أن دعاها للجلوس، أن تقص عليه ما حدث بالضبط. جلست ملتصقة به على الكرسي، دون أن يشعر بجسدها، وبدأت تقص عليه كيف أنها كانت تقطع الطريق حين تفاجأت بسيارة حمراء تقودها امرأة ترتدي نظارة طبية، تقترب منها. لكن، وقبل أن تصل السيارة إليها

بحوالي متر واحد، تجمد كل شيء حولها. ثم أضافت وقد هدأت أنفاسها قليلا غير أنها ما زالت خائفة وتتلفت:

- تصور أن كل شيء فجأة سكن مكانه، وكأنني في معرض للدمى. أو كأن شريطا سينمائيا أوقفه أحد. السيارات والناس والطيور وحتى الأصوات جميعها سكنت تماما. صرت أتلفت يميناً وشمالاً بحثاً عن أي شيء يتحرك، فلم أجد. بعد ذلك رأيت من بعيد شيئاً غريبا جدا.

قاطعها بحماس:

- ماذا رأيتِ؟ ماذا رأيت؟

لكنه استيقظ على صوت زوجته وهي تطبطب برفق على خده الأيمن، وتناديه:

- رشيد رشيد.... استيقظ مفزوعا، سألته من هي؟! لقد كنت تردد: ماذا رأيتِ؟

مسح بيده وجهه، ضاغطا بسبابة وإبهام يده اليسرى على كلا حاجبيه، وقال:

- يبدو أنني كنت أحلم.

بعد أن اطمأنت أن الدوار لم يعاوده اليوم، قالت مستغربة:

- ليس من عادتك أن تنام بملابسك وعلى كرسي في الصالة.

أخبرها أنه كان يتابع برنامجا تلفزيونيا حين غلبه النعاس. بعد الغداء، وهما في الشرفة يرتشفان الشاي، قالت له زوجته:

- اليوم حدث موقفان غريبان في المستشفى.

نظر إليها مستفهماً دون أن يتكلم. فتابعت: «إحدى العاملات وجدت في دورة المياه النسائية بالدور الأرضي، رضيعة ملفوفة في قطعة قماش لم يستطع أحد التعرف على هوية من وضعها هناك. وحين قام الأمن في المستشفى بتتبع كاميرات المراقبة، وجدوا أن امرأة منقبة دخلت إلى دورة المياه حاملة هذه الطفلة في يدها، وخرجت من دونها. فتتبعوها من خلال الكاميرات إلى أن خرجت من المستشفى. لكنها لم تستقل أي سيارة، بل اختفت بين الزحام. أحضروا الطفلة وكانت صغيرة جدا لا يتجاوز عمرها ثلاثة أيام، وبصحة جيدة. أسعدني جدا أن الزملاء طلبوا مني أن أختار لها اسما. لا أدري لماذا حين نظرت إليها شعرت أنها تبتسم، فاقترحتُ عليهم أن يسموها بسمة».

نظر إلى أرضية الشرفة الفسيفسائية متنقلا من لون إلى آخر، دون أن يعلق بكلمة. فتابعت زوجته:

- قبل أن أخبرك عن الموضوع الثاني، ما رأيك أن نتبنى تلك البسمة البريئة؟

قالت ذلك دون أن تنظر في عينيه اللتين طالما توسلتاها كي يتبنيا طفلا أو طفلة. كان ذلك قبل سنوات كانت فيها في أوج محاولاتها المستميتة لأن تتوج بتاج الأمومة المقدس. كانت وقتئذ تنظر إلى التبني على أنه تنازل صريح منها، عن قداسة الأمومة. واعتراف ضمني بأنها أقل من باقي النساء. أما هو فكان لا يرى في هؤلاء الأبرياء إلا فاتورة باهضة يدفعونها

بلا حول منهم ولا قوة، ثمنا لرغبات جسدين، وصراعهما الأزلي بين الطين والسماء. فالتفت إليها وقال:

- هناك فرق كبير يا عزيزتي بين أن نتبنى طفلاً نهب له حياة كريمة شح بها عليه من اكتفيا بالرعشة، وبين أن نمارس أنانيتنا بعد أن قال لنا القدر كلمته الثقيلة التي ليس لنا اليوم إلا مواجهتها والاعتراف بها. مثل فريق خاسر فقد لياقته، يحاول في الوقت الضائع تسديد ركلة واهنة في مرمى يحرسه قدر يقظ. نحن اليوم كما ترين يا عزيزتي، لا نمتلك الأهلية المناسبة للقيام بدور أب وأم لرضيعة لم تُكمل أسبوعها الأول. كما أن كلينا منهمك في عمله الذي يستنزف كامل نهاره وطاقته. فلا أرى داعيا اليوم لكي نجامل أنفسنا، وندخل في مشروع كبير هدفه إرضاء غريزة نرفض الاقتناع بأننا حرمنا من إشباعها للأبد. كما أن الرجل والمرأة، ليسا ناقصين فيكملان حين يكونان أبـًا وأمًّا.

ثم قال وهو يعصر بيمينه أصابع يدها اليسرى برفق:

- أخبريني ما هو الموقف الثاني؟

- الموقف الثاني أغرب من الأول، فبعد محاولات شاقة للحصول على رقم هاتف أقارب تلك الفتاة المسكينة التي توفيت بالأمس في حادث الدهس، رفض أهلها أن يتسلموا جثتها، وقالوا: لقد تبرأنا من هذه البنت، ولا نريد أن نتسلم جثتها.

تفاجأ كثيراً وأخبرها بأن تلك الفتاة المسكينة، هي إحدى طالباته في السنة الرابعة والأخيرة. وأنها مجتهدة جدا، ويبدو من أناقتها ومظهرها أنها من عائلة ميسورة. ثم سألها مستوضحا:

- كيف تتصرف إدارة المستشفى مع هكذا حالات؟
- أبداً، نُعلِم البلدية، فيرسلون من يستلم الجثة، ويدفنونها في المقبرة العامة.

(4)

في صباح اليوم التالي، وهما يتناولان إفطار الصباح، كان معظم حديثهما عن رقية المسكينة، وحادث الدهس الذي أودى بحياتها، وهي في زهرة العمر. وحيرتهما من ردة فعل أقاربها القاسية جداً، حين رفضوا تسلّم جثتها. أما ما يدور في رأسه هو فكان عراكا بين شبح موتائيل، وطيف رقية التي كان شيء ما يدفعه للاعتقاد بأن زيارتها له في الحلم، ما كانت إلا لتطلب منه خدمة، غير أن شيئا ما أخرسها.

في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية التقى بصديقة رقية المقربة، توحيدة. كان واضحا من شحوب وجهها، هول الصدمة، ومدى الرعب الذي مرت به. قدم لها التعازي بوفاة صديقتها مبدياً أسفه الشديد لما جرى. متمنيا لها أن تتجاوز هذه المرحلة الصعبة جدا. بعد أن شكرته قالت بصوت مبحوح، وهي تنظر إليه بعينين دامعتين:

- تصور يا دكتور، كل هذه الحياة والأمنيات والأحلام والضحكات وكل شيء جميل فيها، ينتهي في لحظة واحدة!! والغريب أن هذه اللحظة قد تأتي في وقت نظن أننا أبعد ما نكون عنها.

نظر إلى قميص توحيدة الذي لم يكن طرفاه متساويين، وبعض أزراره لم تجد فتحات تحتضنها في الطرف الثاني منه. ثم قال لها:

- شئنا أم أبينا يا توحيدة، الموت هو المايسترو الذي يقود لحن الحياة على مسرح الوجود، وهو الذي يوزع الأدوار على

العازفين. كل ما هناك أنه يقف متواريا عنا وراء ستارة الغيب. فلا ندري متى سوف يعطي بعصاه الطويلة إشارة توقف أحد العازفين عن العزف.

ثم عقّب بعد أن جلسا على كرسي خشبي:

- أُقدّر جداً ما أنت فيه اليوم. لكن هل تستطيعين إخباري ما الذي جرى بالأمس؟

تحدثت توحيدة والدموع تلمع في عينيها:

- تغدينا معا في المقهى، ثم ذهبنا إلى مركز التسوق لشراء بعض المستلزمات. كانت تضحك وتتكلم كثيرا، كأنها تستفرغ رصيدها من الضحك والكلام. كانت فرحانة جداً تتراقص مثل فراشة. ثم فجأة وكأن أحداً أغمض عينيها وسحبها من يدها، مشت كالمسحورة باتجاه الشارع المزدحم. صرخت عليها: رقية قفي سيااارة قاااادمة!!! في تلك اللحظة فتحت عينيها، إلا أن السيارة قريبة جدا منها. تسمّرت مكانها وهي تنظر إلى السيارة بمنتهى الرعب. وخلال ثوان اصطدمت بها السيارة، فترنحت في الهواء، ثم سقطت على الزجاج الأمامي للسيارة، تدحرجت بعدها لتسقط على إسفلت الشارع بلا حراك. اجتمع الناس حولها، وكنت معهم. اعتقدت أنها إصابة خفيفة أفقدتها الوعي، لأن السيارة التي صدمتها لم تكن مسرعة. أخذتها سيارة الإسعاف إلى المستشفى،

وكنت معها. كانت تردد: أرجوك ليس اليوم. أرجوك ليس الآن. في المستشفى، وبعد قرابة الساعة أبلغوني أنها توفيت.

سألها، «متى حدث كل ذلك تقريبا؟» أجابت:

- لا أذكر بالضبط، ربما بين الساعة الرابعة والخامسة تقريبا.
- توحيدة، هل كانت رقية تسكن معكم؟ ومن أين هي؟ ومن هم أقاربها؟
- لم تكن رقية تحدثنا كثيرا عنها ولا عن أهلها. خاصة أنها لم تكن معنا في السنة الأولى، فقد انتقلت من جامعة لم تخبرنا ما اسمها. كل الذي نعرفه عنها، أنها من عائلة ثرية جدا من القيروان. في أول سنة لها معنا، سكنا مع بعضنا بعضاً في غرفة واحدة في سكن الجامعة. كنتُ أحيانا ألاحظها تخرج مع بعض أقاربها في سيارات فخمة وحديثة.

مسحت توحيدة دموعها وأضافت: «بشكل عام هي لم تكن تحدثنا عن حياتها الخاصة إلا نادراً جداً. وفي السنة التي تلتها، تركتنا وسكنت لوحدها في شقة». فقاطعها:

- أين كانت هذه الشقة؟
- لا أعلم، رغم أني سألتها أكثر من مرة. إلا أنها في كل مرة تعيد نفس العبارة: صدقيني أنا سعيدة هكذا. وتأكدي لو احتجت لأي شيء، ستكونين أول من أفكر في الاتصال بها. كما أن تواصلنا على الهاتف شبه مستمر، ونلتقي يومياً في الجامعة.

- ألم تلتق بأبيها أو أمها أو أحد أقربائها؟
- بصراحة لم ألتقِ بأحد من أقاربها قط.

في ذلك اليوم كان لديه محاضرتان انتهى منهما في حدود الساعة الواحدة ظهرا. ذهب بعد ذلك إلى عمادة شؤون الطلبة، وطلب ملف رقية الشخصي وبعض المعلومات الشخصية عنها. فردت عليه الموظفة بعد أن أعطته رقم رقية الجامعي، بأن عليه أن يذهب إلى المكتب المجاور، وسيحصل على كل المعلومات التي يريدها. في المكتب المجاور، ومن خلال الرقم الجامعي عرف أن رقية بنت غريب العباسي هو اسمها الكامل، وأنها من منطقة زعفرانة في القيروان. سأل ما إذا كان لديهم تفاصيل أكثر عن العنوان؟ أجابته المسؤولة عن القسم: «للأسف هذا كل ما لدينا». أخذ العنوان ورجع إلى الشقة.

بعد الغداء جلس وزوجته يشربان الشاي في الشرفة. ويتبادلان يوميات عملهما. خاصة أنهما يعملان في مكانين كثيري المتغيرات. سواء في الجامعة على مستوى الطلاب والأفكار التي تطرح وتناقش بين الأساتذة والباحثين، أو بعض أفكار طلبة كلية العلوم الإنسانية، وآراء بعض الطلاب سواء في السياسة العربية وهمومها، أو التوجهات الحديثة للإنسان المعاصر، كالعلمانية والأديان وغيرها... فالطلاب يحبون النقاش والمداخلات في هذه المواضيع الفلسفية، خاصة أن شبكة الإنترنت أعطتهم مجالا واسعا من جهة، وصعّبت الأمر على المحاضر من جهة أخرى. لأن المحاضر إذا لم يكن ملما ومتمكنا وعميقا في

المعلومة التي يطرحها، والمادة العلمية أو الفكرية أو الفلسفية التي يقدمها، سيبدو مُحرجا أمام الطلبة. كذلك المستشفى الذي تعمل فيه زوجته، ككل المستشفيات المرجعية، لا يخلو من الكثير من المفارقات والأحداث وبعض الحالات الغريبة.

قال لزوجته:

- تصوري في آخر محاضرة كنت أتحدث عن بعض الموروثات التي يولد بها الإنسان وليس له الخيار فيها، ولا يمتلك القدرة على انتقائها، فقامت رقية معترضة وهي تقول: إن ذلك يعني أن الإنسان يولد مظلوما. كأن يولد في بيئة فقيرة أو من الأقليات المنبوذة. ما يحيرني أني اليوم ومن خلال صديقتها المقربة عرفت أنها من عائلة ثرية جدا. وهذه الهواجس عادة تحوم حول الإنسان الفقير المعدم. الذي قد يتذمر من وضعه المادي أو الاجتماعي، وهذا ما لا ينطبق عليها نهائيا.

شاركته زوجته وجهة نظره مضيفة:

- من الغريب حقا أن تتبنى فتاة مُترفة، أفكارا كهذه!! تُرى ما الذي دفع أهلها لعدم تسلم جثتها؟ هل هي مسألة ميراث مثلا! كأن يكون والدها قد توفي، فاختلفت مع أقاربها على الميراث، وبالتالي أصبحت القطيعة؟

«كل شيء وارد -رد عليها- لكن مهما كان السبب، لا أراه يستحق أن يكون لهذه الدرجة من القطيعة». ثم تابع:

- لدي فكرة، ومن أجل أن أمضي فيها، أريد منك أن تطلبي من المستشفى تأجيل تسليم الجثة لدفنها إذا كان ذلك ممكنا.
- لا بأس أستطيع طلب ذلك من المستشفى، لكن ما هي فكرتك؟ هل تنوي تسلم الجثة وتتولى دفنها؟ أم أن الفتاة المسكينة قد أوصت بأن يتم التبرع بجثتها لكلية الطب للتشريح مثلا؟.
- لا أبداً، لا يوجد شيء من هذا القبيل. لكن هناك فكرة مسيطرة علي منذ الصباح. أفكر في الذهاب يوم السبت القادم إلى القيروان والبحث عن أهلها، علني أستطيع إقناعهم بتسلم الجثة. ولك أن تأتي معي إن أردتِ.

تعجبت زوجته من فكرته التي بدت لها مثالية أكثر من اللازم، لكنها جارته الحديث وهي تواري غيرة تعجبت بنفسها منها:

- للأسف كنت أتمنى لو أني أستطيع أن آتي معك، لكن يومي السبت والأحد لدي مناوبة في المستشفى هذا الأسبوع. هذا أولا. أما ثانيا وبصراحة لا أود أن أرى تلك العائلة بعد الذي فعلوه بابنتهم. أيا كان الخلاف الذي بينهم، فقد توفيت وانتهى كل شي. فلماذا يستمرون في خصامها لما بعد موتها، لدرجة امتناعهم عن استلام جثتها ودفنها، وإقامة عزاء عليها؟

(5)

صباح يوم السبت كان مستقلاً الحافلة المتوجهة إلى مدينة القيروان. سانداً رأسه على زجاج النافذة التي توفّر له اهتزازاتها المتواصلة، تدليكًا ناعمًا لصداعه النصفي. فمنذ حادثة الشرفة، وشبح موتائيل يستولي على السويعات القليلة التي يتنازل عنها الصداع. كما كان غارقًا في التفكير في النهاية المأساوية لفتاة في عمر الزهور من جهة، وموقف أهلها الرافض لتسلّم جثتها من جهة أخرى. متخيّلا السيناريو الذي قد يحدث بينه وبين أقاربها، ومتهيئًا لأسوأ ردات الفعل التي قد تبدر منهم. وكيف أنه سيحاول إقناعهم بأن لا شيء مهما علا شأنه، كافٍ لأن أن يكون سببًا لقطيعة تمتد لما بعد الموت، مثل دخان أسود وخانق انطفأت ناره. وبينما هو في معمعة أفكاره، جاءته رسالة من زوجته، فيها رقم هاتف رجل يدعى محمد طه، وهو الذي تواصلت معه إدارة المستشفى بخصوص تسلّم الجثة، لعله يحتاجه في حالة عدم قدرته على الاهتداء إلى منزل عائلة رقية.

المسافة بين مدينة تونس العاصمة ومدينة القيروان قرابة مائة وستين كيلومتراً. تقطعها الحافلة في حدود ثلاث ساعات يتخللهن الوقوف في بعض المحطات الصغيرة. في حوالي الساعة العاشرة والنصف وصل إلى مدينة القيروان. عندما نزل من الحافلة، وقف يتأمل المنطقة المجاورة بشيء من الريبة. لقد زار هذه المدينة لأول مرة عندما كان طالبا في مرحلته

الجامعية. وأكثر ما لفت انتباهه آنذاك، جامع القيروان الذي يسميه البعض جامع عقبة بن نافع. أخبرهم المرشد وقتها أنه أقدم جامع في القيروان، ويوجد فيه أقدم منبر مستخدم في العالم الإسلامي. ويعود إلى القرن الثالث الهجري. لا يدري لماذا بدت له تلك المعلومة وقتها بالغة الأهمية، لدرجة أنه لمس خشب المنبر بخشوع، ثم مسح بيده على وجهه وصدره. أخرجه من أفكاره، سؤال أحد أصحاب سيارات الأجرة عن وجهته. قال له:

- أود الذهاب إلى منطقة زعفرانة، بشرط أن توصلني وتنتظرني ثم تعيدني إلى هذه المحطة.
- لا مشكلة، لكن في هذه الحالة سيكون السعر مختلفاً. لأني سوف أقضي اليوم بأكمله معك.
- وكم ستكون أجرتك؟
- مائتان وخمسين ديناراً.

ابتسم وقال له: «ألا تكفيك مائتا دينار؟».

وهما في الطريق إلى زعفرانة بدأ سائق سيارة الأجرة بسؤاله من أين أتى؟ وهل هذه أول مرة يأتي فيها إلى القيروان؟ لأنه لاحظ أنه لا يعرف شيئا في المدينة. فأخبره أنه من العاصمة، وأنه لم يزر القيروان منذ أكثر من ثلاثين سنة. ثم حدَّثه بإيجاز عن الفتاة المسكينة رقية وموقف أهلها المحير. سأله:

- هل تعرف مكان المنزل؟

- لا. لكننا عندما نصل سنسأل عن عائلتها. فهي من عائلة ثرية وحتما ستكون معروفة.

لكنهما عندما وصلا زعفرانة تفاجآ بأن لا أحد يعرف عائلة بهذا الاسم. لدرجة أن السائق قال له:

- لا بد أنك مخطئ. ربما هم في منطقة أخرى.

حينها تذكر أن لديه رقم هاتف أحد أقاربها. فورا اتصل بالرقم وعرف من الصوت الذي رد عليه أنه شاب. عرّفه بنفسه، ثم قال:

- هل أنت محمد طه؟
- نعم تفضل.
- أردت أن أسألك هل هذه منطقة زعفرانه؟
- نعم، هل من خدمة أسديها لك؟
- هل يمكنك أن تصف المكان الذي أنت فيه؟
- نعم، ولكن لماذا؟

فاضطر أن يخبره أنه يبحث عن منزل فتاة اسمها رقية. فورا رد عليه:

- هل تقصد رقية التي توفيت في حادث دهس في العاصمة؟
- نعم إنها هي، هل أنت والدها؟
- لا، أنا أحد أقربائها.
- هل والدها موجود؟
- نعم، إنه من أقاربي ويسكن جوارنا.

عندها أعطى هاتفه لسائق السيارة ليأخذ وصف مكان البيت. وبعد تقريباً نصف ساعة من الانعطاف نحو اليمين ونحو الشمال وصلا إلى منطقة اشتبها بأنها هي التي حددها لهما محمد طه. عندما نظر إلى البيوت الصغيرة والقديمة، شك أن يكونا في المكان الصحيح. فلا يمكن أن تكون رقية من هذه المنطقة.

قال له السائق:

- دعنا نتصل مرة أخرى بالأخ محمد طه.

اتصلا به وحددا له المنطقة التي هما فيها. قال لهما: «أنتما في المكان الصحيح، انتظرا أنا قادم إليكما». بعد دقائق خرج إليهما من بين البيوت الصغيرة فلّاحٌ في الثلاثينات من العمر. سلم عليهما وقال:

- تفضلا.

قال له د. رشيد:

- أتيت لألتقي بوالد رقية.
- أنت تقصد سي غريب.
- نعم.
- اتبعاني، فالبيت قريب جدا من هنا.

اعتذر سائق التاكسي وبقي ينتظر عند السيارة، بينما رافق هو محمد طه إلى بيت سي غريب. مشيا في زقاق ضيق في حي شعبي بسيط جدا. ابتسم حين قرأ على أحد الجدران القديمة «إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس». وبعد دقائق أشار محمد طه بسبابته إلى باب بيت صغير، ذاك

هوبيت سي غريب، توجها إلى حيث أشار، وهو يكاد يجزم بأن هناك لبسًا ما في الموضوع. إذ يستحيل لتلك الفتاة الأنيقة أن تسكن في مثل هذا الحي. وقفا أمام باب المنزل الحديدي الصدئ ذي بقايا اللون الأزرق. طرق محمد طه الباب، فأتاهما صوت من الداخل لرجل كبير في السن يقول:

- تفضل الباب مفتوح.

(6)

دفع محمد طه الباب الحديدي، فأحدثت مفاصله صريرا وكأنه لم يُفتح منذ سنين، تراجع للوراء وهو يشير بيده للدكتور رشيد أن يدخل أولا. وجد د. رشيد أمامه رجلا كبيرا في السن، جالسا على بساط مفروش على الأرض. ورغم فقره وبساطته، يكسوه وقار.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قالها وهو بالكاد يصدق ما تراه عيناه.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

رد سي غريب وهو يحدق بيعينيه الصغيرتين الغائرتين إلى مصدر الصوت الذي بدا له مثل شبح أسود ينام ظله الطويل أمامه. ثم قال: «تفضل بالدخول»، مشيرا بيمناه إلى وسادة صغيرة تستند على جدار تآكل صبغه. دخل د. رشيد وتبعه محمد طه وجلساعلى يمين الرجل.

- كيف حالك يا سي غريب؟
- الحمد لله كما ترى.
- لستُ متأكدا هل أنت من أبحث عنه، أم أني أزعجتك بتطفلي اليوم؟

قال ذلك، وهو يجول بناظريه في المنزل القديم والمتهالك. ثم تابع كلامه:

- على العموم إذا كنت أنت من أتيتُ لأعزيه، فالبركة فيك.

صمت الرجل وأطرق إلى الأرض التي ينكثها بعصا صغيرة كانت في يده. فقال له:

- إذن أنا أعتذر، يبدو أني قد أخطأت في العنوان أو حدث تشابه في الأسماء.

عندها تدخل محمد طه وقال مخاطبا سي غريب:

- هذا الدكتور رشيد أحد أساتذة رقية، وقد جاء من العاصمة ليقدم التعازي لعائلتها.

ما أن أتم محمد طه كلامه، حتى تساقطت دموع الرجل متخذة من تجاعيد وجهه أفلاجا. وسمع صوت نشيج امرأة كبيرة في السن تبكي في إحدى غرف البيت الصغير.

«أنت لم تخطئ»، قال سي غريب، «فأنا والدها».

ثم نادى بصوت مرتعش وضعيف: مبروكة يا مبروكة.

فأقبلت امرأة منحنية تمشي بألم وتثاقل، إلى أن وقفت على يسار سيدي ياسين الذي قال:

- هذه أم رقية.

فالتفت إليها وقال:

- البركة فيكم.

وضعت جزءا من غطاء رأسها على وجهها، ودخلت في نوبة بكاء. بينما هو مع هذين العجوزين، حاول أن يجمع بين صورة رقية في ذهنه:

لباسها، أناقتها، ثقافتها، وبين ما يراه ويسمعه. فلم يجد ما يربط بين الصورتين بتاتا. ثم قال لهما:

- يوجد شيء واحد يحيرني، وهو في الحقيقة ما دفعني لزيارتكما.

مباشرة رد سي غريب:

- الذي يحيرك هو رفضنا لاستلام الجثة أليس كذلك؟!

- نعم.

فتابع سي غريب: «تلك قصة طويلة وأنت رجل قادم من مكان بعيد وواجب علينا ضيافتك. سنتناول الغداء معا اليوم. وسأخبرك القصة بكامل تفاصيلها». حاول الاعتذار عن الغداء بحجة أن سائق سيارة الأجرة ينتظره ولضيق الوقت لديه. فرفض سي غريب رفضا قاطعا إلا أن يتناول معهم الغداء. ثم قال:

- لا بأس، أخبر صاحبك أن يشاركنا الغداء. ولو أن بيتنا لا يليق بمقام رجل مثلك.

- على العكس تماما، أتشرف بأن أكون معكم بارك الله فيكم.

تدخل محمد طه وقال:

- سأذهب لأحضر سائق سيارة الأجرة.

عرج محمد طه لبيته وطلب من زوجته أن تذهب إلى بيت سي غريب لتساعد دادا مبروكة، ثم ذهب ليحضر سائق السيارة، الذي ما أن رآه قادما، حتى قام بتدوير المحرك استعداداً للعودة. فأشار له بيده أن أطفئ المحرك، لأنكما ستتناولان الغداء هنا. فقد أبى سي غريب إلا أن يكون

غداؤكما معه. دار حديث جانبي بين سائق السيارة وسي غريب عن الطقس والمعيشة وغلاء الأسعار الفاحش هذا العام. ومحمد طه يضرب بعض الأمثلة بأسعار بعض السلع مقارنة بأسعارها في العام الماضي. ومن خلال أحاديثهم الجانبية عرف د. رشيد أن سي غريب وزوجته من الطبقة الفقيرة الكادحة. وأن مصدر دخلهما الوحيد هو عملهما عند ملاك مزارع الشعير، بأجرة يومية زهيدة لا تتجاوز عشرة دنانير، لا تتناسب وساعات العمل التي تمتد من ساعات الصباح الأولى، إلى غروب الشمس. ثم نظر إلى سي غريب وهو يقول: «لقد شربنا القهوة، ونرجو سماع القصة بكامل تفاصيلها كما وعدتني».

(7)

تنهد سي غريب وكأن في رئتيه حرائق الدنيا، ثم قال وهو ينظر إلى مجهول:

«اسمع يا ولدي. أنا ومبروكة كما ترى من الناس البسطاء جداً، لا نملك من حطام الدنيا إلا هذا البيت الذي يوشك لولا لطف الله، أن يقع على رأسينا. تزوجنا قبل أربعين سنة، وبعد ثلاث سنوات ونصف تقريباً من الانتظار، رزقنا الله ولداً اسميناه مرزوق. بقي معنا سنة ونصف، ثم أصابه مرض فجأة، واختاره الله إلى جواره. بكينا عليه كثيرا كونه أول فرحة لنا بعد طول انتظار. ودفنّاه أنا ومبروكة وبعض الأقارب. بعد فترة ليست بالطويلة هذه المرة، رزقنا الله بفتاة اسميناها حبيبة. لكنها بعد سنتين وثلاثة أشهر لحقت بأخيها. فدفناها بجانبه ونحن نمزج الألم بالصبر وحسن الظن بالله. وبعد فترة طويلة من التردد على المستشفيات كلفتنا الكثير، أخبرتني مبروكة أنها حامل. فرحنا كثيراً، وقلنا إذا كان صبيا سنسميه اسماعيل، على اسم أخي الذي منذ هاجر إلى إيطاليا، لم نره ولم نسمع عنه شيئا. وإن أتت فتاة سوف نسميها رقية، لعل الله يرقيها من العين والحسد. فرزقنا الله برقية. كبرت رقية وكانت كل يوم تزداد جمالا لدرجة أننا لم نكن نستطيع مفارقتها خائفين من موتها الذي نتوقعه في أي لحظة. وكلما كبرت، ازددنا فرحا وتعلقا بها. لدرجة أن رؤيتها وخدمتها صارت مصدر سعادتنا الوحيد. وفرنا لها كل ما نقدر عليه. وكأنها ملكة بين خدامها. كنا نلبي لها كل طلب بأي طريقة.

نحرم أنفسنا، لنوفر لها ما يُسعدها. ونقترض لكي نلبي لها طلباتها التي لا تنتهي. وجاءت المدرسة وألقت مصاريفها بحمل ثقيل علينا. في بداية مراحلها الدراسية الأولى، إذا لم نوفر لها جميع ما تطلب، تغضب وتبدأ بالصراخ. فكنا نلبي لها ما تشاء لكي لا تشعر أنها أقل من رفيقاتها في المدرسة. كانت كلما رأت شيئًا، قالت أريد مثله. وكلما كبرت، كبرت معها طلباتها. وكبر معها همنا الذي نخفيه مراعاة لمشاعرها. فلا تسمع منا إلا حاضر، وإن شاء الله. كنا نفرح لفرحها، ونغضب لغضبها. إذا أكلت، شبعنا. وإذا شربت، ارتوينا.

كنا نخرج في الصباح ونعود في الليل مهدودَين من أجل توفير حياة كريمة ورغيدة لها. بلا شك، كان تفوقها في المدرسة، مصدر سعادة لا توصف بالنسبة إلينا. كان المعلمون والمعلمات إذا رأوني أو رأوا مبروكة، يبادرون بالإطراء والمديح على رقية وتفوقها وجمالها. نُسر كثيراً، وننسى مقابل ذلك كل الشقاء والتعب. مرت الأيام وكبرت رقية. وازدادت قسوة علينا. كانت ترفع صوتها علينا لأي تقصير. ثم تمادت في ذلك لدرجة أنها في يوم من الأيام كانت على وشك أن تمد يدها على أمها، لأنها نسيت أن تغسل ثيابها. ومع ذلك صبرنا لأننا نرى فيها أخاها وأختها اللذين وإن رحلا عن الدنيا فإنهما مغروسان في قلبينا. مرت الأعوام وأنهت رقية مرحلة الثانوية بتفوق غمر القرية فرحا. وصار كل من في القرية يبارك لنا، ويفتخر بها، بل ويدعي معظمهم أنها من أقاربهم.

لكن الفرحة لم تدم طويلا. فلقد فاجأتنا رقية حين أصرت أن تدرس في إحدى جامعات العاصمة بالرغم من وجود جامعة القيروان. توسلت لها أمها أن تدرس هنا، لأننا لا نريدها أن تبتعد عنا، فلم تفلح معها. وحاول بعض الأهل والأقارب أن يقنعوها بالدراسة في جامعة القيروان، لكنها أصرت أن تدرس في العاصمة. وذهبت مع بعض صديقاتها لتقديم طلب للدراسة هناك. ولما جاءها خبر قبولها في إحدى جامعات العاصمة المرموقة، فرحت كثيراً، وطلبت منا مالاً، لكي تستعد للذهاب إلى العاصمة للدراسة. فباعت أمها قطعة الذهب الوحيدة التي لديها، وأعطتها المبلغ لأنها أرادت شراء بعض الملابس. خاصة وأنها رأت الفتيات هناك يرتدين أحدث وأجود الأنواع من الملابس. ثم أتى اليوم الذي اصطحبناها فيه بقلوب مقبوضة إلى محطة الحافلات. اطمأننا عليها حين رأينا أنها سوف تذهب برفقة مجموعة من الفتيات اللواتي كن سبقنها للدراسة في نفس الجامعة فأوصيناهن عليها كثيرا، لدرجة أن إحداهن احتضنت مبروكة وقالت: ابنتك فاطمة يا أماه، واطمئني رقية ستكون معي بخير إن شاء الله. وقُبيل أن تصعد إلى الحافلة دسستُ في يدها ثلاث مائة دينار كنت قد اقترضتها من أحد الأقارب، وبقيُت أشهراً أسدد ذلك المبلغ. غادرت الحافلة، ورجعنا أنا ومبروكة إلى المنزل. بدت لنا المسافة مئات الأميال. وأحسسنا أن المنزل مظلم وموحش. والوقت ثقيل جداً. لم نستطع النوم تلك الليلة. كان عزاؤنا أن حبيبتنا رقية ستصبح متعلمة وستضمن لها حياة ومستقبلا أفضل بكثير من عناء حياتنا. وستعوضنا عن كل هذا البؤس».

(8)

«مر علينا شهر لياليه أطول من أيامه. كانه سنوات كبيسة. انتظرنا بفارغ الصبر إلى أن جاء يوم الجمعة. خرجنا يستعجلُ كل واحد منا الآخر، وتوجهنا إلى محطة الحافلات بانتظار وصول قرة عيننا رقية. وكلما وصلت حافلة أسرعنا إليها ننتظر أن تنزل منها رقية دون جدوى. كنا نهرول وراء كل حافلة حتى قبل أن تقف. إلى أن رأينا فاطمة تنزل من إحدى الحافلات، ففرحنا وذهبنا إليها نسألها عن رقية دون حتى أن نسلم عليها. قالت فاطمة وهي تتحاشى النظر في عيننا المتلهفتين:

- رقية لم تأت معنا. لكنها طلبت مني أن أبلغكما أنها محتاجة بعض المال. فالمصاريف هناك كثيرة.

وعدتها بأن أحضر المال وآتي إلى هنا يوم الأحد. ورجعنا البيت نكفكف دموعنا. سكت سي غريب ومسح دموعه بأطراف كمه، ثم تابع كلامه بصوت مخنوق: استمر الوضع على هذه الحال عدة أسابيع. كل يوم جمعة نذهب إلى المحطة ننتظر رقية، ورقية لا تأتي. ولم نسمع منها سوى أنها تطلب المزيد من المال. وبعد أكثر من شهرين من التردد على محطة الحافلات، أشرق علينا وجهها من إحدى الحافلات القادمة من العاصمة. ومن اللهفة والفرحة والشوق، وبلا شعور مني، سحبتُ والدتها -التي كادت أن تسقط على وجهها، لولا أن أحد المارة أمسك بها من يدها- ووقفنا أمامها بوجهين لا يُرى منهما إلا ابتسامة كبيرة كشفت عن

بقايا أسنان نسيها الزمن. سلمت علينا بفتور تعجبت منه زميلتها فاطمة، لكننا عذرناها بسبب تعب الطريق. حملت والدتها التي لا تقوى على حمل نفسها حقيبتها، وعدنا إلى البيت. في الطريق كانت صامتة، ولا ترد على لهفتنا وأسئلتنا إلا بعد تأفف، وباقتضاب. رمقتني والدتها بنظرة المخذول وهي تشير علي بالصمت. حين دخلنا البيت، فتحت حقيبتها وأخرجت ملابسها وقالت لأمها اغسليها، ولكن لا تخلطي الملونة بالبيضاء. ودخلت غرفتها وأغلقت وراءها الباب. على العشاء كانت صامته ولم تأكل إلا لقمة واحدة، ثم قالت شبعت وقامت وتركتنا كل واحد منا ينظر إلى الثاني بحيرة. حاولت أن أكلمها لكنها تعللت بأنها مرهقة من الدراسة وتريد أن ترتاح. ثم قالت لوالدتها أخبري أبي أني بحاجة إلى المال لأن الحياة هناك غالية. عاتبتها أمها برفق، بُنيتي حبيبتي أنت من قررت الدراسة في العاصمة، رغم وجود جامعة هنا تغنينا عن كثرة المصاريف كالسكن وغيره. وأنت تعلمين بفقرنا وقلة ما في أيدينا، وإلا ما بخلنا عليك بشيء. ومثل قطة داس أحد على ذيلها، صرخت دون أن تنظر في وجه أمها:

- وما ذنبي أنا إن كنتما فقراء؟ وهل علي أن أعيش حياة بائسة كالتي تعيشانها أنت وأبي؟

لم تجد والدتها جوابا إلا الصمت. وقبل أن تذهب إلى الجامعة أخبرتنا بأنها لن تزورنا إلا بعد أشهر.

وبعد قرابة الشهرين كنت ووالدتها نتناول العشاء، وليس على لساننا إلا سيرتها حين دخلت علينا البيت. فرحنا كثيرا، وقامت والدتها لتحضنها. لكنها مدت يدها وهي ترجع ظهرها للوراء، وصافحتنا بفتور. وحين طلبنا منها مشاركتنا العشاء، قالت إنها دائخة من الطريق وتريد أن تنام. وقبل أن تغلق باب غرفتها ألقت ملابسها وهي تقول:

- كما أخبرتك، لا تخلطي الملونة بالبيضاء.

أتذكر أني قلت لأمها: لا تغسليها ودعيها مكانها.

لكن أمها قالت:

- دعني وابنتي وشأننا، عسى الله أن يصلحها.

ثم صمتَ وكأنه يستذكر ماذا حدث بعد ذلك».

دادا مبروكة وزوجة محمد طه في المطبخ تعدان الكسكسي للغداء، وبين فينة وأخرى كانت دادا مبروكة تسكن لتصغي لزوجها وهو يحكي لضيفيه قصتهما مع رقية. مستغلة صمت زوجها، جلست دادا مبروكة مستندة إلى باب المطبخ المفتوح بحيث لا يراها الضيوف وقالت بصوت متهدج:

«ما زالت رائحة عطر ملابسها النفاذة معششة في أنفي. لكن ما أقلقني يومها، هو أني وجدت في بعض جيوب ملابسها مبالغ مالية ليست بالقليلة، نسيتها. كما لفت انتباهي بنطلون ممزق عند إحدى الركبتين، أخذته في يدي ودخلت غرفتها فوجدتها مشغولة بهاتفها لدرجة أنها لم

تشعر بي، مما اضطرني أن أرفع صوتي. قلت لها وأنا أُشير إلى مكان تمزق البنطلون:

- طمنيني يا بنيتي كيف حال ركبتك؟ هل تعثرت ووقعت؟

فضحكت مني بتهكم، ونزعت قطعة بيضاء من أذنها، وقالت:

- وما أدراك أنت بالأناقة والموضة. اغسليها فقط.

فانسحبت وأنا أسمع صرختها «أغلقي الباب».

وحين خرجت من غرفتها لمست شيئا صلبا في جيب البنطلون، أدخلت يدي وكانت المفاجأة إسوارة وخاتمان من الذهب. استدرت لأعود إليها وأسألها، لكنني تراجعت. لم أخبر والدها لكنني بقيت محتارة من أين لها تلك المبالغ المنسية، والذهب؟!! عادت إلى العاصمة دون أن تفتقد المبالغ ولا الذهب، ودون أن تطلب مالا هذه المرة. لكن والدها ناولها مبلغا أخذته باحتقار ورمته في حقيبتها. وقالت ربما ستتأخر هذه المرة أكثر بسبب قرب الاختبارات. وقد أوفت بوعدها فجاءت بعد أكثر من شهرين لم تتصل خلالهما إلا مرة واحدة ببيت محمد طه وأبلغته أن يُخبرنا أنها بخير. يومها كانت كل شيء إلا أن تكون ابنتي. سلوكها طباعها ملابسها كل شيء متغير تماما. في إحدى المرات وبينما أنا أغسل ملابسها لاحظت كم هي غير محتشمة، كالتي ترتديها النساء الإفرنجيات. وفي صباح يوم السبت استطعت أن أغافلها وأفتح حقيبتها فرأيت ما دفعني إلى مواجهة معها غير محمود تأجيلها. انتهزت فرصة

خروج والدها إلى الجامع، ودخلت غرفتها. فلما رأتني أحست بما في قلبي. قلت لها:

- أنت لست ابنتي التي ولدتها وتعبت عليها وخرجت بها من هذه الدنيا. ما سر هذا التغيير؟

نظرت إلي شزرا، وتمتمت:

- عجوز مثلك ماذا ستعي؟

رغم وجع كلمتها التي تعمدَتها لكي تُفسد علي مواجهتي، إلا أنني بلعت الصفعة وكتمت الصرخة، وقلت لها:

- أتظنين أن الله خلقني عجوزا هكذا؟ ألم أكن طفلة فرح بها أبواها كثيرا، ثم بنتا صغيرة خجولة، ثم فتاة جميلة تلاحق أنوثتها أعين الشبان الذين كان واحدا منهم أبوك؟ هل تتصورين أني لا أعرف شيئا من الحياة غير الشقاء الذي سعيتُ وأبوك كي لا ينالك شيء منه؟

ثم رميتُ أمامها كل ما وجدته في ملابسها وحقيبتها، وبنبرة لبؤة جُرحت كرامتها، قلت لها:

- هل تكونين شجاعة وتخبريني من أين لك كل هذا، ولماذا؟

ردت ببرود وهي تحاول إخفاء دهشتها:

- وهل علي أن أرث منك فقرك وأفكارك البلهاء، وأعيش حياتي وأنا أبحث عمن يطعمني ويسترني وينفخ بطني كل عام مثل البقرة؟

رفعتُ يدا مرتعشة لا لأضربها، ولكن فقط لأعلمها أنها تمادت علي. فهبت واقفة وصرخت في وجهي:

- إياك أن تتدخلي في شؤوني أو تتصوري بأني سأرضى بجاهلة مثلك تحدد ما يجب وما لا يجب عليّ فعله. كان الأولى بك وزوجك أن تطورا من معيشتكما وترتقيا، لا أن تظلا عالة على أصحاب المزارع يلقون عليكما الفتات، وتعللان ذلك بالقضاء والرزق والكرامة والقناعة، لتضحكا بها على عقليكما. وترضيا بهذا الفقر والبؤس والذل الذي تسميانه عزة نفس.

ثم تناولت حقيبتها، وأخذت تُلقي فيها بملابسها وكتبها وحاجياتها. حاولت أن أمسك يديها، وأحتضنها وأعتذر منها. لكنها دفعتني بقوة ربما لم تتعمدها، فسقطت ملتصقة بالجدار، وأنا أتوسل إليها بأن تسامحني وأن لا تخرج من البيت وهي غاضبة. لكنها دون حتى أن تلتفت إلي، صرخت:

- لن تري وجهي مرة أخرى.

وخرجت مثل المجنونة.

بعدها لا أذكر ماذا حصل لي. فقد انتبهت حين صب والدها على وجهي وصدري كوب ماء وهو يناديني. لم أستطع أن أخفي عليه أكثر، خاصة أنه رآني بتلك الحالة. فقصصت عليه كل ما حدث بيني وبينها. قال لي: أحسنتِ صنعا. ودعيها للأيام والغربة. سوف تراجع نفسها وتأتي لتُقبّل رأسك ويديك وتعتذر منك. إن لم يكن اليوم، فغدا».

بلع سي غريب ريقه ونظر بعينيه إلى أعلى والدموع تكاد تطفر من عينيه الصغيرتين الغائرتين، وطلب من مبروكة الدخول لإعداد الغداء، ثم تابع يقول: «مر ما يقارب الشهرين ونصف دون أن نلمح لها ظلا أو نسمع لها حسا. إلى أن تعبت مبروكة ولازمتها الحمى وهجرها النوم. وفي ذات ليلة وأنا أصبّرها قالت لي وهي تبكي مثل الأطفال:

- لا أستطع أن أتحمل أكثر. أريد أن أرى ابنتي التي لم أخرج من الدنيا بغيرها.

قلت لها:

- إننا لا نعلم أين تسكن ولا أين تدرس، لكنني سأذهب عصر الجمعة إلى محطة الحافلات لعلي أجد فاطمة فأسألها عنها.

ومن زميلتها فاطمة، التي قالت بحزن وأسى بعد أن قبلت يدي: «سامحني يا عمي، رقية تغيرت كثيرا، ليس ذلك فقط، لقد تركتنا وانتقلت إلى جامعة أخرى بعيدة عن جامعتنا، اسمها جامعة 9 أفريل. غير ذلك لا أعرف عنها شيئا». ثم ظلت تكرر: «سامحني يا عمي، وأخبر أمي مبروكة أن تسامحني».

ذهبتُ مباشرة إلى قريبنا محمد طه، وطلبت منه أن يأخذنا إلى العاصمة مقابل أي مبلغ يريده. فوعدني أن يأخذنا يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر.

أكمل سي غريب وهو يحاول منع نفسه عن البكاء: «كان يوم ثلاثاء حين خرجنا بعد صلاة الفجر، بعد ليلة لم يغمض لنا فيها جفن. مثل

طفلين يتيمين ينتظران يوم العيد. جاء محمد طه وأخذنا في سيارته إلى العاصمة. كانت مبروكة كل حين تسأل محمد طه: كم بقي لنصل؟ إلى أن غلبها النعاس ونامت. سرنا إلى أن وصلنا إلى أطراف العاصمة. جزاه الله خيراً محمد طه، كان يقف ويسأل مرارا. إلى أن أوقف صاحب سيارة أجرة ابن حلال. أخبره أننا نريد الذهاب إلى جامعة 9 أفريل، فقال اتبعوني. وصلنا إلى الجامعة، فرأينا المكان جميلا وبه حديقة رائعة ومبنى كبير كأنه قصر. والأولاد والبنات يمشون هنا وهناك وفي أيديهم بعض الأوراق. كنا نمشي وأعيننا تمسح وجوه الفتيات. ولأن قلب الأم لا يخطئ، رأتها مبروكة تمشي مع ثلاث فتيات، هي أحلاهن وأطولهن. فصرخت بلا وعي:

- رقية.. رقية..

هي لم تنتبه، لكن الفتيات اللواتي كن برفقتها رأيننا وقلن لها:

- رقية انظري هناك أحد يناديك.

فلما التفتت ورأتنا، زاغ بصرها وكأنها تنظر إلى كلبين أجربين. وحين دنونا منهن ونحن نلهث، صرخت:

- لماذا أنتم هنا؟

ثم التفتت إلى رفيقاتها وقالت لهن بصوت نسمعه كما نسمعكما الآن:

- هؤلاء خدمٌ يعملون مع والديّ في البلد. اذهبن سآتي إليكن.

أقبلت إلينا وعيناها تغليان كالجمر. صرخت بكل وقاحة قائلة:

- هل تريدان أن تفضحاني؟ أتيتما ليراكما زملائي وزميلاتي؟ ألا يكفي الفقر الذي كنتُ فيه بسببكما؟ ألا يكفي الحرمان الذي كنت أعيشه؟ أتظنان أني سأعود إلى ذلك القبر الذي أسكنتماني فيه؟!

تكلمت كثيراً وكأننا لم نقدم لها شيئًا، ولم نعمل ونشقى ليلاً ونهاراً من أجلها وفي سبيل أن تبلغ ما هي فيه اليوم. من شدة الصدمة وقسوة الموقف، لم تستطع مبروكة الوقوف على قدميها، فبركت على الأرض مثل الناقة المريضة. حتى محمد طه من الدهشة أخذ يضرب يدا بيد وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». ثم قالت وهي تلوح بسبابتها:

- هذه آخر مرة أراكما فيها وترونني.

بعدها استدارت وأسرعت تمشي باتجاه رفيقاتها اللاتي كنّ ينتظرنها ليس ببعيد، ونحن نلاحقها بنظراتنا غير مستوعبين ما يحدث».

عاد مرة أخرى صوت دادا مبروكة المجهد وهي تقول: «جزاه الله خيراً محمد طه، أمسك بنا واحداً تلو الآخر، وأدخلنا في السيارة وعاد بنا إلى البلد. كان الجميع صامتا في السيارة، لم يستطع أحد قول أي شيء من العاصمة إلى أن وصلنا البلد». ثم تابع سي غريب: «عندما وصلنا قريبا من الحي، طلبت من محمد طه أن يذهب بنا إلى مقبرة البلد. فتوجه بنا إلى المقبرة ونزلنا هناك. أردت أن أسلمه المبلغ الذي اتفقنا عليه ولكنه

رفض رفضـاً قاطعـاً وقبَّلني على رأسي وقال لنا: هل تحبان أن أنتظركما؟ شكرته وطلبت منه أن يُبقي ما حصل ذلك اليوم سراً بيننا، وقد أوفى».

قال ذلك وهو يرمق محمد طه بنظرة وكأنه يطلب منه أن يبقي على السر. «دخلتُ ومبروكة المقبرة وتوجهنا إلى قبري مرزوق وحبيبة. جلستْ مبروكة بين القبرين تقرأ الفاتحة وتبكي كأنها طفلة ماتت أمها. بينما انهمكت أنا أجمع التراب، وصنعت قبرا بجانب قبري مرزوق وحبيبة. قلت لمبروكة: هذا قبر رقية. نظرت مبروكة إلى يدي وقد التصق التراب بالعرق فيهما، وقالت: هكذا بكل بساطة هُنّا عليكِ يا رقية؟!! جلسنا نبكي على قبر رقية الوهمي طويلا. وكل واحد فينا يذكّر الآخر بتلك اللحظات التي تعبنا فيها وعانينا لكي نوفر حياة كريمة لهذه الفتاة التي قابلت كل إحساننا بالنكران. ثم قلت لمبروكة: لقد ماتت ابنتنا رقية وهذا قبرها. بعد اليوم ليس لنا إلا الله هو حسبنا ونعم الوكيل. ثم خرجنا من المقبرة ونحن ننفض أيادينا ليس فقط من التراب فقط، ولكن من الدنيا كلها!!».

(9)

«قُبيل المغرب، خرجنا من المقبرة نحن الثلاثة. أنا ومبروكة والشمس. كانت الشمس مثلنا منكسرة وضعيفة ووجهها أصفر مثل وجه المحموم. دخلنا البيت حزينين مخذولين أو قُلْ مقتولين من أقرب الناس إلينا. كان كل واحد منا يكتم وجعه ويصبّر الآخر».

سكت سي غريب، ومسح بطرف كمه عينيه. فأكملت دادا مبروكة بعد أن مسحت الدموع على وجنتها الذابلة:

«رغم المرارة والألم، فإنني أم. قلت في نفسي: بُنَيتي ستُراجع نفسها وستأتي وتعتذر. وسوف نسامحها وكأن شيئًا لم يكن. مر الأسبوع الأول والأسبوع الثاني. والشهر الأول والشهر الثاني. السنة الأولى والسنة الثانية. ورقية لم تكلف نفسها حتى بالسؤال عن حالنا أحياء أم ميتين؟ بخير أم مريضين؟ لدينا طعام أم جائعين؟ مع أنها تعلم بحالنا وفقرنا وكبر سننا وضعفنا عن كل شيء. ولكننا لا نقول إلا الحمد لله رب العالمين».

كان الصمت والذهول باديين على وجهي د. رشيد وسائق سيارة الأجرة وهما بين مصدق وغير مستوعب لما يسمع ويرى. وهل من المعقول أن يصل الأبناء مرحلة من العقوق ونكران الجميل لهذه الدرجة؟ خاصة حين يتعلق الأمر بنكران جميل الاثنين اللذين هما السبب الرئيسي لوجود الإنسان في هذا العالم. ثم سأل سي غريب، قائلاً:

- طوال الفترة الماضية، ألم تسأل رقية عن حالكما ولا حتى من خلال إحدى زميلاتها؟

هز سي غريب رأسه بإيماءة حزينة: ولا حتى هذه!!

كان الوضع صعبًا ومؤلما وقاسيا جداً. أب وأم كبيران في العمر، وفي حالة من الفقر والتعب والمرض، يتحدثان بانكسار عن فلذة كبدهما، التي آثاراها على نفسيهما وقدما لها كل شيء. فقابلت كل عطائهما وتضحياتهما بجحود كبير.

بعد فترة من الصمت الثقيل الذي يبدده نحيب دادا مبروكة وسي غريب، قال د. رشيد:

- لقد شربنا القهوة وجلسنا معكما ونرجو أن تعذرانا عن الغداء. أنتما الآن في حالة عزاء ولا نريد إزعاجكما أكثر من ذلك. فأرجو أن تسمحا لنا بالانصراف.

قاطعه سي غريب:

- لقد وعدتني بأنك وصاحبك ستتناولان الغداء في ضيافتنا، كما أن غداءكما جاهز.
- إذا كنت مصرا، فسمعًا وطاعة، ولنا عظيم الشرف.

علق د. رشيد، ثم أضاف: «لكن اسمحا لنا إلى أن يحين وقت الغداء أن نترككما لنتجول في البلدة، وسنعود بعد ساعة من الآن لنتناول معكما الغداء».

قال سي غريب: «حسنا»، ثم طلب من محمد طه أن يرافقهما كي لا يضيعا البيت، لأن بيوت الفقراء تتشابه مثل الغربان. قال ذلك مبتسما بتهكم وهو ملتفت للدكتور رشيد.

خرج الثلاثة يتجولون في البلدة. لاحظ د. رشيد أن الحمير ما زالت وسيلة نقل مهمة في القرية. كما لاحظا أن معظم أبواب البيوت مشرعة والأطفال يتراكضون من منزل إلى منزل، وكأن الحي كله عبارة عن منزل كبير واحد. ولفت انتباههما كرم الناس رغم بساطتهم. فالكل يدعوهم لتناول وجبة الغداء. شعر في قرارة نفسه بسعادة كبيرة، لأن هذا الشيء غير موجود في المدينة. كما أن المرء لا يستطيع مشاهدة المنازل إلا من الخارج فقط. بينما في هذه القرية الوادعة الجميلة، فبإمكان الزائر مشاهدة البيوت من الداخل بتفاصيلها المتواضعة التي تعكس طباع أصحابها وبساطتهم وكرمهم غير المتكلف، ومحمد طه يسمي أصحاب بعض البيوت وصلة قرابتهم بسي غريب. لم يشعر د. رشيد بالوقت وبدا مستمتعا بالمشي في أزقة البلدة، والحديث الجانبي مع معظم من يلتقي بهم. ثم عرَّجا على الدكان الوحيد في القرية وأصر د. رشيد أن يشتري بعض المشروبات الغازية وسكرا وشايا. كما عرف من الحوار المقتضب بين صاحب الدكان ومحمد طه أن سي غريب لم يدفع ما عليه منذ فترة، فأصر أن يدفع لصاحب الدكان دين سي غريب.

وعندما اقتربوا من باب منزل سي غريب، غمرتهم رائحة الكسكسي، خاصة أنهم كانوا جائعين. حين دخلوا وجدوا سي غريب يجتهد وبيدين

مرتعشتين في تقطيع طماطمًا وخسًا وبصلًا، قطعًا كبيرة وصغيرة متفاوتة الأحجام، في صحن على سفرة دائرية من سعف النخيل. بمجرد أن رآهم ابتسم وقال لهم:

- إذا وجدتم أصابعي فلا تأكلوها، أعيدوها إلي.

ضحكوا معا وكأنهم يتعارفون منذ سنوات. تحلقوا جميعا معه على السفرة، وبعد قليل نادت زوجة محمد طه زوجها لتناوله قصعة الكسكسي. أكلوا جميعا بحميمية وكأنهم عائلة واحدة تجمعت بعد شتات. تذكّر د. رشيد طفولته عندما كان يأكل مع والديه وأخته، وقال في نفسه وهو يقلّب بصره في أيدي الحاضرين: «محيرة هي الأقدار، كلما ظننا أننا فهمنا قوانينها، وأننا في مأمن من دوران عجلتها، فاجأتنا بجهلنا وسذاجتنا أمام غدرها ومكرها. وأن لا فرق عندها بين غني وفقير. ومعافىً ومريض. وكيف أن الدنيا صغيرة جداً، لدرجة أنك سترى من عجائبها ما لا تستوعب. وكبيرة جداً، لدرجة أن هناك أشياء تحدث في بقعة ما، لا يخطر ببالك أنها موجودة إلا في عقول القصّاصين والحكّائين».

(10)

بعد الغداء، كان عليه التوجه إلى محطة الحافلات. وقبل أن يهم بالانصراف، قال لسي غريب:

- لدي طلب أخير وعشمي فيكما كبير.

لكنه تفاجأ برد سي غريب الذي كان واضحا وقاطعا حين تكلم وعيناه تنظران الأرض:

- أنت ضيف عزيز، وكل طلباتك أوامر، عدا طلباً واحداً أظنك لا تقصد سواه.

حاول معه، لكنه رفض رفضاً قاطعاً، وقال بنبرة حازمة مبحوحة:

- نحن دفنّاها منذ سنوات. ودفنّا كل ذكراها معها. إن تسلَّمنا جثتها فسنعاود فتح جرح عميق في قلوبنا. هي تنازلت عنا، وتركتنا ونحن بين حياة تُشبه الموت، وموت يُشبه الحياة. في حالة من الكبر والعجز والمرض وضيق ذات اليد. واختارت طريقاً لم نكن فيه إلا غباراً وراءها لم تلتفت حتى إليه. وبما أنها زهدت فينا واختارت طريقها، فعليها أن تُكمله بمفردها!!

تفهّم الوضع وسلم على سي غريب وزوجته مبروكة مودعاً، وقدم لهما التعازي، فرغم كل شيء هما أب وأم فقدا ابنتهما الوحيدة. حاول أن

يدس في يد سي غريب مبلغاً من المال، لكنه رفض وشكره على شهامته وكرمه، وسحب يده وهو يتمتم:

- مستورين والحمد لله. وأشكرك يا ولدي شكراً جزيلاً على شهامتك فقد أتعبت نفسك بالقدوم من العاصمة إلى هنا من أجلنا جزاك الله خيراً.

ثم صافح هو وسائق سيارة الأجرة، سي غريب، وشكراه على كرم الضيافة، وخرجا من منزلها. قبيل أن ينعطفا ماشيين التفت للوراء، فرأى سي غريب لا يزال واقفاً أمام الباب، فلوح له بيده. ورد عليه بأن رفع كلتا يديه، ثم توارى عنه.

عند السيارة، شكر محمد طه على وقته وناوله مبلغا من المال طالبا منه أن يعطيه لسي غريب، واعتذر منه عن الإزعاج. طلب منهما الأخير أن يأتيا إلى منزله، لكنه شكره معتذرا عن قبول الدعوة لأنه في طريقه إلى محطة الحافلات ذاهباً إلى العاصمة. في الطريق كان سائق سيارة الأجرة يشرح له بعض الطرق الرئيسية، والأماكن الحكومية والسياحية في القيروان. عندما اقتربا من المحطة سأل سائق سيارة الأجرة ما إذا كان للحافلات مواعيد؟ قال السائق:

- لا يوجد لرحلاتها وقت محدد. إذ بمجرد اكتمال العدد في الحافلة تنطلق، ويأتي دور التي تليها، وهكذا. ولكن لأن اليوم

ليس الأحد، قد تنتظر قليلاً لقلة المسافرين إلى العاصمة. لا بأس، هيا بنا إلى محطة الحافلات.

وحين اقتربا من محطة الحافلات، تخيل سي غريب ومبروكة وهما يهرولان خلف كل حافلة قادمة من العاصمة. غير مكترثين بالدخان الذي تنفثه الحافلات وراءها؛ بحثا عن ابنة لن يرياها للأبد. ترجل من السيارة. وتبعه السائق ليكفيه مشقة البحث عن الحافلة. تم الاتفاق مع سائق حافلة متجهة إلى العاصمة، ينقصها عدد قليل من الركاب. صافح السائق مودعا، وأعطاه ثلاث مائة دينار –كانا قد اتفقا على مائتين– وبقي ينتظر إلى أن يكتمل العدد. كان معظم الركاب ينتظرون في الحافلة، بينما القليل منهم واقف في الخارج، بعضهم يُدخن.

لفتت انتباهه عائلة تنتظر خارج الحافلة مكونة من رجل وزوجته وابنتين وولد واحد. كان الرجل في مثل عمره تقريبا، اقترب منه وألقى عليه التحية. بمجرد أن رآه الرجل، صاح:

– أنت من العاصمة أليس كذلك؟ ابتسم له.

فقال الرجل:

– أنا أعمل في العاصمة حارسًا لإحدى البنايات السكنية. وأسكن وعائلتي في غرفة صغيرة فوق سطح المبنى. وغالبا نأتي إلى هنا كل شهر نزور الأهل والأرحام وبعدها نعود.

ثم أضاف الرجل بنبرة وضح فيها الحزن:

- ولو أن مهنتنا بدأت تندثر، والكثير من رفاق المهنة استغنى عنهم أصحاب البنايات، واستبدلوهم بأبواب زجاجية تنفتح أتوماتيكيًا بواسطة رقم سري يعطيه صاحب المبنى للسكان. لكن، الله كريم.

فتذكر بينه وبين نفسه، أن من بين الأشياء التي يفضلها كثيرا في البناية الجديدة التي يسكنها، هو ذلك الباب الأوتوماتيكي الذي لم يخطر بباله أبدا أنه أفقد الكثير من البسطاء، مصدر دخلهم الوحيد.

بعد حوالي نصف ساعة اكتمل العدد وأتى صاحب الحافلة ليجمع الأجرة من الركاب، فأصر د. رشيد على الرجل أن يتحمل دفع قيمة أجرته وعائلته. فرح وشكره كثيراً. بعد أن صعد جميع الركاب في الحافلة، سره أن وجد كرسيا شاغرا قرب إحدى النوافذ. رغم كل أحداث ذلك اليوم الغريبة وغير المتوقعة، إلا أنه كان يجلس في الحافلة بسعادة كبيرة. لقد كان مزهوا برحلته تلك، وبكل الذين قابلهم خاصة سي غريب ودادا مبروكة. كما تركت الجولة التي قام بها وسائق سيارة الأجرة على قدميهما في بلدة زعفرانة انطباعًا جميلا في نفسه. وبما أنه أستاذ فلسفة، فإنه يَعنيه جدا ملاحظة سلوك البشر، وأنماط معيشتهم. كما أتاحت له هذه الرحلة النظر من زاوية مختلفة لحياة الناس الاجتماعية، بهدوء وعن قرب. بعيدا عن صخب المدينة وسرعة توالي الأحداث فيها.

(11)

انطلقت الحافلة الساعة الرابعة والنصف تقريبـًا. كـان معظـم مـن فيهـا من بسطاء الناس. مـال برأسـه علـى مسـند الكرسـي، وأغمـض عينيـه بعـد زيـارة غيـر متوقعـة إلـى قريـة زعفرانـة مـع سـي غريـب ودادا مبروكـة. ثـم فتحهما على رائحة برتقـال نفـاذة تنسـاب مـن ورائـه. اسـتدار فـرأى رجـلاً كبيراً في السن يقشر برتقالـة. تبـادلا ابتسـامة خفيفـة، ثـم اعتـدل في جلسـته ينظر من النافذة. بعد لحظات همـزه الرجـل المسـن في كتفـه. فلمـا التفـت إليه، مد إليه يدا تحمل قطعة من البرتقال، تتقاطر من بين أصابعها النحيلـة قطرات من عصيره. تناولها منه وشكره بابتسامة وإيماءة من رأسه.

بعـد فـترة مـن انطـلاق الحافلـة، غـط معظـم الركـاب في النـوم. خاصـة عندما بدأت الحافلة بالخروج من الطرقات الصغيرة، والدخول في الطريق الرئيسي المتجه إلى العاصمة.

أحداث ذلك اليوم ما زالت تستحوذ على تفكيـره. خطـرت علـى بالـه رقية التي لم يتوقع أنها تخفي وراء تلك الشخصية وذلـك المظهـر، واقعـًا مختلفـًا تمامـًا عمـا كانـت تُظهـره للآخـرين، متسـائلاً عـن الأسـباب التـي دفعتها في سبيل ذلك إلى أن تتنكر لأقرب الناس إليها. وبينما هو مستغرق في أفكـاره التـي لا يخرجـه منهـا إلا شـخير بعـض الركـاب، وتمـرجح رؤوسهم التي غلب عليها اللون البرتقالي لشمس العصر، صرخ طفل كان نائمـًا في حضن أمه أمامه بمقعدين. حاولت إسكاته لكنها عجزت، فتناوله أبوه، أخذ يهدهده ويطبطب برفق على ظهـره إلـى أن هـدأ ثـم نـام فأعطاه

لأمه. لكنه ما لبث أن صرخ مرة ثانية بقوة سببت تذمر وغضب جميع الركاب الذي جفل معظمهم من نومه مفزوعاً. فتناوله أبوه ثانية لكنه هذه المرة أخذ يسلي الطفل بنغمات هاتفه والطفل يحاول أخذ الهاتف من يد أبيه. في تلك اللحظة تماما تجمد كل شيء أمامه. حتى إن يد الطفل بقيت ملتصقة بالهاتف. وبدا له وكأنه يستقل حافلة من دُمى. كما أن الحافلة هي الأخرى أصبحت ساكنة، وكل شيء حولها ساكن لا يتزعزع. أصابه رعب كبير وأخذ يتلفتُ يميناً وشمالاً، وهو يشعر بضيق شديد في التنفس، تلاه دوار حاد. بعدها غشيه ضباب محا كل شيء أمام عينيه. كان الضباب رمادياً، ثم ازداد كثافة إلى أن أصبح أسود وخانقاً. أحس وكأنه يتدحرج في نفق مظلم وبارد جدا. فجأة شاهد ضوءاً قوياً في آخر النفق، ولفح وجهه هواء بارد. أفاق على صوت امرأة تناديه:

- رشيد.. رشيييد..

كان بين حالة من الوعي واللاوعي حين صرخ مفزوعا:

- أين أنا؟

ثم فتح عينيه رويداً رويداً ورأى إضاءة قوية موجهة إلى وجهه، صرخ ثانية أين أنا؟ ثم أحس بدفء يد على جبهته. وحين فتح عينيه، وجد نفسه على سرير أبيض وحوله زوجته وأخوها يونس. سألهما:

- أين أنا، وما الذي حصل؟

فأخبرته زوجته وهي تحاول تهدئته وطمئنته واضعة يدها على جبهته بأن حادث تدهور وقع للحافلة التي كان يستقلها، وأنه بخير فقط كدمات

بسيطة وأخفت عنه كسر ضلعين من أضلاع قفصه الصدري. شيئا فشيئا بدأ يستعيد وعيه، فسأل زوجته:

- أين رقية؟

اندهشت من سؤاله، لكنها علقت:

- سوف تأتي عما قريب لتطمئن عليك.

دخل عليهم أحد الأطباء، وعدل من وضعية السرير، فبدا شبه جالس، والطبيب يقيس له ضغطه. سأل زوجته عن الوقت، قالت له:

- إنها التاسعة والربع.
- متى أتيتما؟
- قبل ساعة تقريبا. لقد تعرفت عليك د. زينب، وهي إحدى زميلاتي.

فاتصلت بي وأخبرتني عن الحادث، فأتينا إليك أنا ويونس في سيارته.

أثناء كلامهما دخلت د. زينب وقالت لزوجته:

- الحمد لله على سلامة د. رشيد.

ثم التفتت إليه وقالت لتطمئنه:

- الحمد لله مجرد رضوض بسيطة. لكن أخبرني من موتائيل الذي كنت تكرر اسمه أثناء غيبوبتك؟

ابتسم وقال ملتفتا إلى زوجته:

- مجرد هذيان يا دكتورة.
- عموما غداً صباحاً تستطيع العودة إلى المنزل.

وكتبت له حقنة مهدئة، وقبل أن تنصرف التفتت مخاطبة د. منال: غدا صباحا سآتي لأطمئن عليه.

ثم دخلت الغرفة ممرضة، وحقنته في ذراعه، وأخبرتهما بأنه سينام لعدة ساعات. تمدد يونس على الأرض، وأمالت زوجته الكرسي المخصص لمرافق المريض والذي يشبه كرسي السيارة إلى الوراء وحاولت النوم. لكنها استيقظت في منتصف الليل على صراخه وهو يكرر مووتاااائيلللل. حاولت إيقاظه، لكنه كان مستغرقا في نوم عميق.

في الصباح عند الساعة الثامنة أتت د. زينب مع بعض الأطباء. أجروا فحوصات روتينية له. كانت جميعها مطمئنة. ثم أخبروه أن أحد رجال الشرطة جاء لأخذ أقواله، وبعد ذلك يمكنه الانصراف. لم يطل استجواب الشرطي له. خاصة أنه قال للشرطي إنه كان نائماً قُبيل وقوع الحادث. ثم سأله الشرطي هل تريد تعويضاً؟ فابتسم وشكر الشرطي وسأله:

- هل من إصابات خطيرة وقعت للركاب؟

أجابه بحزن أن هناك بعض المصابين، وحالة وفاة واحدة للأسف. قطب بحاجبيه متسائلا، فأضاف الشرطي: للأسف توفي طفل رضيع في عامه الأول تقريباً.

(12)

بعد أن سُمح له بمغادرة المستشفى، وقبيل خروجهم من باب المستشفى الرئيسي، شاهد والدي ذلك الطفل، والأب يحاول جاهدا تهدئة الزوجة المنهارة وهي تردد: «لماذا تركت جميع من في الحافلة، وأخذت مني رضيعي يا رب؟!»، فأحس بانقباض شديد في صدره. وقال محدثا نفسه: «الحرمان أهون من أن تُعطى شيئا جميلاً، ثم يؤخذ منك عنوة».

استقلوا سيارة يونس متوجهين إلى العاصمة. وقبل دخولهم شارع الحبيب بورقيبة، سألهما يونس إن كانا يودان الذهاب إلى أي مكان؟ فشكراه، وسار بهما إلى شقتهما. ركن سيارته ونزل معهما يوصلهما إلى باب الشقة. طلبا منه الدخول وتناول الغداء معهما. لكنه اعتذر لبعض الارتباطات. شكرته أخته على وفقته النبيلة معها. فابتسم وقال وهو يضع يده على كتفها:

- لا شكر على واجب يا أختي الحبيبة.

ودعهما وانصرف. دخلا الشقة، فذهب فورا وتمدد على السرير وتنفس بعمق كمن رُدت إليه روحه. سألته زوجته ماذا يريد أن يأكل؟ فقال لها:

- أنا الآن بحاجة لفنجان قهوة من يدك الغالية أرتشفه في جنتنا الصغيرة، أكثر من حاجتي إلى أي شيء آخر.

حضرت لهما فنجاني قهوة، وذهبت إلى الشرفة وهي تقول:

- تعال يا رشيد لتشرب القهوة مع حوريتك في الجنة.

ما أن جلس في الشرفة، وارتشف رشفة من القهوة، وبدون أن تسأله زوجته، بدأ يقص عليها تفاصيل زيارته للقيروان، ولقائه بوالد رقية ووالدتها وسط اندهاش غريب من زوجته التي نسيت حتى أن تشرب القهوة التي لا تحبها فاترة. أضاف وهو ينظر إلى فراشة صغيرة وقفت على ورقة إحدى الشجيرات التي تملأ الشرفة:

- وجدتهم ناسًا فقراء طيبين. رغم بساطتهم إلا أنهم غاية في الكرم وعزة النفس. لدرجة أن والد رقية امتنع بأسلوب مهذب حين وضعت في يده مبلغا من المال. وسحب يده وقبّل سبابته، ثم قال لي: مستورة يا ولدي والحمد لله. لكنني إلى الآن لم أستشف سببا واحدا منطقيا دفع رقية إلى أن تتخذ ذلك الموقف المتطرف من والديها، رغم كل ما قاما به من أجلها. لدرجة أنها سببت لهما جرحا لم يغفرا لها بسببه حتى بعد وفاتها الشنيعة.

قالت له زوجته:

- حياة كل إنسان لا تخلو من المفارقات التي تصل إلى حد التناقض أحيانا. يبدو أن ما يظهره كل إنسان، ما هو إلا جانبه المرئي، ويخفي جانبا لا يريد سواه أن يعرفه.

قال معلقا على كلامها:

- لكل إنسان منا عدة أوجه أو أقنعة. لدرجة أن ما يعرفه عنه الآخرون، قد يختلف تماما عما هو عليه. وذلك نابع من سعي الإنسان للكمال الذي لن يصل إليه، ورغبته في إخفاء ما يراه نقصا أو عيبا. وذلك لا يقتصر على مظهر الإنسان فقط، وإنما ينعكس حتى على أفكاره وآرائه ومعتقداته.

أضافت زوجته:

- أتذكر أننا عندما كنا في المبنى السابق كان معظم النساء يغبطنني حين ينظرن إليّ مرتدية البالطو الأبيض، وزوجي أستاذ في جامعة مرموقة. وأنا أغبطهن على تذمرهن من كثرة مشاكل أطفالهن وأعبائهم الدراسية.

فابتسم وقال:

- في النهاية كل واحد منا عنده ما يسوق به نفسه أمام الآخرين، وفي المقابل عنده ما يحتفظ به لنفسه إما خوفا عليه، وإما خوفا منه. الحياة لو نظرنا إليها من زاوية واحدة، سنجد أنها لغز محير، لكن عندما تتعدد الزوايا، نرى العكس تماما. وسنجد أن بعض الألغاز تُحل ويتضح السبب، وبعضها يأخذها الأنسان إلى قبره ليفكر فيها، في هدوء القبر وسكينته.

التفتت إليه زوجته وهي تقطب حاجبيها الرفيعين وقالت له:

- لقد لاحظت منذ أسبوع ربما أو أكثر، أنك على غير طبيعتك. ماذا بك؟

«أبدا لا شيء»، قالها وهو يتظاهر بالهدوء.

فتابعت وهي تنظر إلى عينيه هذه المرة:

- ولكن يا عزيزي حتى نومك أصبح مضطربا. وفي بعض الأحيان تصرخ بأعلى صوتك موتائيل موتائيل!! وتلك ليست المرة الأولى فقبل ليلتين، بينما كنتَ نائما، فجأة استويت جالسا على السرير ورفعت يدك أمام صدرك، كأنك تدفع شخصا يريد أن يهجم عليك، وأنت تردد لا يا موتائيل. وحتى د. زينب سمعتها بالأمس، قالت إنك كنت أثناء غيبوبتك في المستشفى تردد اسمه. من موتائيل هذا؟!!

كما أخبرتك يا عزيزتي: «إنها مجرد أحلام وتهيؤات». قال ذلك، ثم وقف بالقرب من درابزين الشرفة. ولوح بيده وهو يبتسم. قالت زوجته:

- شابان، أليس كذلك؟

«نعم نعم» قالها وهو لا يزال يلوح بيديه. يا له من رجل طيب وأصيل.

قالت وقد وقفت بجانب زوجها تنظر إلى «شابان بون كافيه» مباشرة:

- نعم إنه فعلا رجل طيب وأصيل. أتذكر أول مرة أتينا إلى هنا لنشتري هذه الشقة ذهبنا وشربنا القهوة معه. يراودني شعور أن معظم من يزور المقهى ويلاحظ أناقة التصميم والتأثيث، لا يتوقع أن شابان هو صاحب هذا المكان الأنيق الجميل.

ثم أضافت وهي تهم بأخذ كوبا القهوة:

- على فكرة، بما أنك في إجازة طبية لثلاثة أيام، ما رأيك في الغد ولمزيد من الاطمئنان، أن تأتي معي إلى المستشفى لمقابلة د. حازم. بعدها يمكننا العودة معًا. لأنني غداً سأعاين مريضين فقط.
- حسنا، فكرة ممتازة.

بعد ذلك تناول دواءه فشعر بالنعاس، ودخل الغرفة لينام. كانت زوجته جالسة في الصالة تقرأ في كتاب، عندما فاجأها صوته من داخل الغرفة وهو يصرخ:

- موتائيل.. موتائيل.. انتظر يا موتائيل.

أسرعت إليه. أيقظته وأعطته كوبا من الماء، وبقيت عنده إلى أن عاد للنوم. في الصباح وبعد الإفطار توجها إلى مستشفى شارل نيكول. وهما يهمان بالنزول من سيارة زوجته، طلب منها أن تتأكد إن كانت رقية لا تزال في ثلاجة الموتى. لأنه يود رؤية جثمانها. نظرت إليه بتعجب، وهزت رأسها بأنها ستفعل.

توجها إلى عيادة الأمراض الباطنية. دخلا على د. حازم الذي كان ينتظرهما. قالت:

- صباح الخير دكتور، كما أخبرتك البارحة سيبقى رشيد معك لإجراء بعض الفحوصات، وسأعود إليكما بعد معاينة مريضي.

ثم ذهبت لعيادتها. وبعد أن انتهت من معاينة مريضيها، عادت إليهما لتطمئن على زوجها. قال لها د. حازم:

- كل شيء على ما يرام. فقط ننتظر أن تصل إلينا نتيجة بعض الفحوصات من المختبر.

فاقترحت عليهم أن يتناولوا بعض المعجنات في مقهى قريب من المستشفى، ريثما تظهر نتيجة المختبر. ذهب الثلاثة معا إلى المقهى وكان معظم كلامهم عن بعض القرارات الإدارية الجديدة في المستشفى، والتي للأسف نادرا ما يؤخذ فيها رأي الأطباء المعنيين كونهم من سيعاني من عدم تلاؤم هذه القرارات مع واقع الحال في المستشفى، خصوصا من حيث عدد الأطباء. بعد ذلك عادوا إلى عيادة الأمراض الباطنية. وبعد أن عاين د. حازم نتيجة التحاليل المعملية، قال لهما:

- كل شي طبيعي. فقط قلل من الملح في الطعام. وإلا ستضطر لتناول دواء الضغط.

شكرا الدكتور حازم واستأذناه بالإنصراف. وقبيل مغادرتهما المستشفى تعمدت زوجته أن يمرا على ثلاجة الموتى، وحين اقتربا أشارت بسبابتها وهي تقول:

- هل ما زلت مصرا على رؤية رقية، مع أني لا أنصحك.

لكنه سحبها برفق من ذراعها واتجها إلى حيث أشارت. دخلا ثلاجة الموتى، ووقفا أمام أدراجها الكبيرة. كان كل درج عليه ملصق صغير مكتوب فيه اسم ورقم المتوفى، وساعة الوفاة وتاريخها. بحثا عن اسم رقية بنت غريب، وكان هو من وجد الاسم. مرر سبابته وهو يقرأ الاسم ثم وقفت سبابته لا إراديا عند الوقت الذي كان 5:05 مساء. سحب

الدرج الذي على لوحه ترقد رقية رقدتها الأبدية. كانت الجثة مغطاة بالكامل. فأرادت زوجته أن تكشف عن وجه رقية، لكنه أمسك بيدها، واكتفى بأن رفع بيده الأخرى طرف الغطاء قليلا ليرى جزءاً من وجهها فقط. كانت عيناها نصف مغمضتين، ودمعة من دم تجمدت على رمش عينها اليمنى. بدت له وكأنها تنظر إلى شيء بعيد جداً. أنزل الغطاء وأغلق الدرج ببطء وخرجا من المستشفى.

(13)

في طريق عودتهما كان لابد أن يمرا بالقرب من «شابان بون كافيه» الواقع مقابل مدخل المبنى الذي يسكنان فيه. عندما اقتربا من المقهى الذي غالبا ما تصدح منه موسيقى (المالوف)، اعترضهما شابان معانقا د. رشيد وهو يقول:

- حمدا لله على سلامتك أيها الجار العزيز. آمل أن تقبلا دعوتي المتواضعة لنحتفل بهذه المناسبة الغالية.

قال ذلك وهو يطلب من أحد عمال المقهى أن يحضر لهما قطعتين من هريسة اللوز وثلاثة فناجين من القهوة، كي لا يدع لهما مجالا للاعتذار.

قالت د. منال وهي تهم بالجلوس:

- بالأمس عندما رأيناك ونحن في الشرفة، تحدثنا عنك وعن هذا المقهى الجميل.

قاطعها زوجها وهو يبتسم بمكر:

- إنها تستكثر على عجوز مثلك، هذا المكان الجميل.

ابتسم شابان وقال:

- معها كل الحق. وسوف تندهشان أكثر عندما تسمعان قصة «شابان بون كافيه» من الألف إلى الياء.

قال د. رشيد وقد شبك أصابع يديه خلف رأسه، وألصق ظهره على مسند الكرسي:

- حسنا أدهشنا أيها الجار العزيز، فليس بين الجيران أسرار.

قال شابان وهو ينظر في فنجانه نصف الممتلئ وكأنه يقرؤه:

«كان ذلك قبل 23 عاما من اليوم تقريبا. كان لدي وقتها عربة أبيع عليها هريسة اللوز التي نصنعها أنا وزوجتي في البيت. كنت كلما وقفت بعربتي أمام محل من المحلات، تذمر صاحبه مني، وأمرني أن أبتعد عنه. أخذت أجر عربتي ذهابا وايابا على طول شارع الحبيب بورقيبة، وأنا أنادي هرييسة للعرووسة. بعد فترة من الكد والتعب، بدأ بعض الشباب خاصة الفتيات من طلبة المعاهد الواقعة في الطرقات المتاخمة لشارع الحبيب بورقيبة، في البحث عني والشراء من هريستي. في البداية ظننتها مجاملة لطيفة منهم، لكن وبمرور الأيام، ثبت لي فعلا أنهم يبحثون عني. بدأت شعبيتي بينهم تزداد يوما بعد يوم. وطلبهم للهريسة يزداد، خاصة بعد ظهوري في برنامج تلفزيوني اسمه شمس الأحد، قبل أكثر من عشرين سنة. لدرجة أن إحدى الطالبات أتت إلي بصحبة والدتها التي ما أن تذوقت من هريسة اللوز حتى التفتت إلى إبنتها وقالت: معك حق، لم أتذوق هريسة لوز مثلها في حياتي. ثم سألتني عن الوصفة. ولكن ابنتها تدخلت بسرعة وقالت: لا تفعل يا عم شعبان أرجوك. لأنك سوف تخسر زبائنك إذا انتشرت وصفتك. لذلك حافظ على سريتها. فردت عليها أمها مازحة: أيتها الحسودة.

قاطعته د. منال على الفور: «كأنني سمعتك تقول شعبان!!».

«نعم» فأنا اسمي شعبان بن جاب الله. وحدث ذات يوم قبل قرابة الخمسة عشر سنة أو أقل بقليل، أن أتت إلي ثلاث طالبات. إحداهن كانت ثرثارة جداً. سألتني:

- لماذا يا عم كتبت على عربتك (شعبان الحلو)؟
- شعبان اسمي يا سليطة اللسان. وأما كلمة الحلو، فأقصد بها هريسة اللوز.

فردت بزهو النساء وغرورهن:

- إن سليطة اللسان التي أمامك ستصنع لك شهرة كبيرة، لكنها ستختار لك اسما (ستايل ومودرن) يليق بزبوناتك الجميلات مثلي. امممممم، من اليوم سوف نسمي عربتك «شابان بون كافيه».

وبدأت تلتقط صورا لي وللعربة، وتكتب عليها الاسم الجديد وترسله إلى صديقاتها ومعارفها. وفي اليوم التالي جاءت ومعها هذه اللوحة الجميلة التي ما زالت موجودة على المدخل. بعد ذلك كثر زبائني من الشباب الذين لا تكتمل بهجة لقاءاتهم إلا حين يتناولون من هريستي، وغالبا ما يلتقطون الصور معي ويرسلونها -بحسب كلامهم- إلى مواقع التواصل الاجتماعي. بعد فترة لاحظت أن معظم من كان يأتي ليأكل الهريسة، يطلب معها القهوة. كنت أعتذر وأجيب أن ليس لدي قهوة، ثم وجدتني بعد ذلك مضطرا لتقديمها مع الهريسة. أتذكر أن شيئا مهما قد تغير بعد أن أصبحتُ ذي شعبية كبيرة. فقد أصبح أصحاب المحلات

يطلبون مني الوقوف بعربتي أمام متاجرهم، باعتباري جاذبا للزبائن. ومع الأيام زادت شعبيتي كثيراً، لدرجة أن أحد المسؤولين توقف عند عربتي، ونزلت ابنته من السيارة وقالت:

- هذا هو «شابان بون كافيه» يا أبي.

ترجل من سيارته ووقف أمامي فاردا ريشه مثل الطاووس. وبعد أن تذوق الهريسة والقهوة قال:

- حقا إنها لذيذة جدا. لكن لماذا لا تفتح مقهى خاصا بك؟

أجبته أني إنسان بسيط، وليس لدي سوى هذه العربة، وسمعة طيبة بفضل زبائني، خاصة الجميلات منهم، وأشرت إلى ابنته التي حقا كانت ملامحها غاية في الجمال. فوضع كتفه على ابنته وهو يقول الفتاة سر أبيها، ثم أضاف بنبرة جادة:

- ليس بين الطلبة فقط، إن شهرتك أصبحت مقصدا حتى للسياح من خارج تونس أيضاً.

وبعد أن شكرته على مديحه الذي بالغ فيه إلى حد ما، قلت له:

- كما تعلم الإيجارات هنا في شارع الحبيب بورقيبة تحديدا مرتفعة جدا.

رد علي فورا، وبحزم لا يخلو من استعراض نفوذه:

- دع الأمر لي.

وفعلا لم تمض إلا أيام قليلة، حتى تفاجأت بمدير بلدية العاصمة يأتي بنفسه ويخصص لي هذا المكان المفتوح بين الأشجار، وأمام هذه البناية

الجميلة التي تسكنون إحدى أجمل شققها، وبإيجار رمزي يبدأ بعد سنة من الإعفاء».

- هذه قصتي باختصار يا جاريّ العزيزين.

سألته د. منال:

- «أين عربتك الآن؟».

- في البيت يا دكتورة، يلعب فوقها أحفادي».

فاقترحتْ عليه أن يخصص لها مكانا في المقهى، وأن يطبع صورتها على فناجين القهوة، وصحون الهريسة. راقت له الفكرة كثيرا، وتعجب كيف فاته ذلك طوال تلك السنين، رغم أنه ارتاد بعض المطاعم التي لها شعار أو اسم مطبوع حتى على الملاعق والمناديل الورقية. لكنه سرّ كثيرا لأنه لا يزال محتفظا بعربته، رغم مناشدات زوجته المستمرة للتخلص منها، خاصة بعد أن سقط من فوقها أحد أحفادهما، وشُج جبينه تاركا له ندبة مدى الحياة. بعد ذلك التفتت د. منال إلى زوجها وقالت:

- هل نستأذن؟

- سألحق بك يا عزيزتي.

وقفت وشكرت شابان على دعوته وكرمه وأثنت كثيرا على نضاله مع الحياة قائلة:

- كل إنسان يخوض معاركه مع الحياة، وحدهم القادة مثلك يا شابان، ينتصرون. والأجمل من ذلك أنك رغم انتصاراتك

المدهشة، ما زلت ذلك الرجل الأصيل الذي لم يتنكر لماضيه، ولم يخجل منه.

بعد أن تأكد أن زوجته قد ابتعدت، قال وهو ينظر في عيني شابان مباشرة:

- أريد أن أتحدث معك في موضوع مهم بشرط أن يكون بيننا فقط.

«تفضل» رد عليه، وقد داخلته رهبة لم يعرف مصدرها ولا سببها. قام من مكانه وجلس على كرسي مجاور لكرسي شابان، وسأله بصوت منخفض وكأنه يبوح بسر، عن الساكنَين اللَّذَين سكنا في الشقة قبل أن يسكنها هو وزوجته، ما إذا كان يعرف شيئا عنهما؟

وجم شابان برهة من الوقت. ثم قال وقد اكتسى وجهه بالحزن:

- أجل، وكلاهما لا يستحقان النهاية المأساوية التي ختما بها حياتهما. خاصة الساكن الثاني الذي بعد انتحاره لم أتوقع أن أحداً سوف يسكن في تلك الشقة مجدداً.

ثم أردف قائلا:

- لم أشأ فتح هذا الموضوع معك، لكن، وبما أنك فتحته معي، أريد أن أسألك كم من المدة لكما وأنتما تسكنان في الشقة؟.
- سنتان وشهران تقريبا.
- عفواً، ولكن ألم تشعرا بشيء غريب، أو تسمعا بعض الأصوات مجهولة المصدر؟
- لا أبداً.

قال شابان: «سألتك عن ذلك، لأنه قبلكما جاء كثيرون لشراء الشقة، لكنهم بمجرد أن يعرفوا نهاية من سكنها قبلهم يتراجعون عن فكرة الشراء. ولقد بقيت لفترة طويلة غير مسكونة. وبين فترة وأخرى، تطلع إشاعة بأن الجن يسكنونها ولا يريدون أحدا من الإنس مشاركتهم. وهذا ما أدى إلى بقاء الشقة شاغرة لخمس سنوات. إلى أن تم عرضها بسعر لا يكاد يُصدق مقارنة بموقعهما ولحداثة المبنى الذي تقع فيه. لقد اشتريتماها بأقل من نصف سعرها الحقيقي تقريبا».

كان واضعا كفه تحت ذقنه يصغي لشابان. ثم قال وهو يهم بالانصراف بحديث يُشبه الهمس:

- عموما أنا لم أخبر منال عن النهاية المأساوية للذين سكنا قبلنا الشقة. لأنني وبمجرد أن أخبرتها عن الساكن الأول، ارتعبت، وعلى الفور قالت لي من الأفضل أن نبحث عن شقة أخرى. لكنني أقنعتها بأنه كان يعاني من مشاكل مالية كبيرة لم يستطع تجاوزها فقرر أن يُنهي حياته.

(14)

في صباح اليوم التالي وهو اليوم الثالث والأخير في إجازته المرضية، استيقظ بينما زوجته تستعد للخروج لعملها، ثم عاد للنوم مرة ثانية. قام بعد ساعة تقريبا. دخل المطبخ وأعد له كوبا من الشاي وتناول علبة بسكويت مملح وجلس في الشرفة وهو يتذكر أحداث حلم البارحة الغريب الذي أعطى الصداع النصفي فرصة لكي ينشب مخالبه بقوة في جانب رأسه الأيمن.

رأى في منامه أنه معزوم على فنجان قهوة. وحين وصل إلى المكان، لاحظ أنه مألوف لديه لدرجة كبيرة. ضغط بتوجس على زر الجرس. ولما فُتح له الباب، رأى أنه هو بنفسه من يستقبله في الداخل، ويقول له «تفضل».

دخل، فوجد نفسه في شقته. والرجل الذي بالداخل الذي هو، هو. جلس في الصالة التي تشبه صالتهما تماما حتى في بقايا بقعة القهوة التي لم يستطيعا إزالتها من مخمل أحد الكراسي. كان يحاول أن يتحدث مع الرجل المستضيف، وأن يقول له إن هذه شقتي وإنك، أنا. لكنه كان غير قادر على التعبير وصياغة الكلام. فجلس ينظر إلى مُضيفه وكأنه أمام مرآة. كان كمن يُقدّم القهوة لنفسه، ويتحدث مع توأمه الذي بالمناسبة كان أعسر، يستخدم يده الشمال، مثله. كما أن كل شيء في تلك الشقة مشابه تماما لما في شقته. التفت إلى الساعة التي تُشبه الساعة التي في شقته، ومثبتة في نفس المكان أيضا، فوجد أنها الساعة الخامسة وخمس

دقائق. وانتهى الحلم. بينما هو في الشرفة مستغرق في التفكير في حلمه الغريب، قال في نفسه: «على الأقل أنا متأكد أنه حلم. لكن يا تُرى ما ذلك الشيء الذي حصل لي هنا في الشرفة قبل أيام؟ وهل موتائيل حقيقة أم مجرد تهيؤات، وأضغاث أحلام؟» أكثر ما كان يحيره ويشغل باله في تلك الحادثة العجيبة، أن عدد الطيور في الصورة التي التقطها بهاتفه، هو بالضبط نفس الرقم الذي ذكره موتائيل. ثم مر بباله ما حدث له في الحافلة أثناء عودته من القيروان؟ هل نام دون أن يشعر مثل باقي الركاب، وكل ما رآه كان حلما أفاق منه في المستشفى، أم ماذا؟

أصبح ذهنه مشوشا جدا. وبدأ أزيز الصداع النصفي يعلو ويعلو. فقرر بعد أن لاحظ «شابان بون كافيه» قد بدأ يستقبل زبائنه، أن ينزل ويشرب قهوة مُرة هو وشابان ولكن على حسابه هذه المرة. كانت الساعة الرقمية الموضوعة على التسريحة في غرفة النوم تشير إلى 11:09 صباحا. قرّب وجهه من المرآه وابتسم عندما لاحظ ولأول مرة، شعرة بيضاء واحدة في حاجبه الأيمن. مسحها بسبابته وكأنه يطمئنها ويرحب بها ضيفة عزيزة. ثم خرج من الغرفة.

كان شابان في ذلك اليوم مشغولا بتحديد المكان الذي سيخصصه لعربته القديمة التي أوصلها إلى نجار ليعيد صيانتها وطلاءها. واشترط عليه أن لا يستبدل منها ولا حتى قطعة خشب واحدة. وضع يده على كتف شابان وقال له بعد أن قرب فمه من أذنه:

– اليوم أنت معزوم على فنجان قهوة في «شابان بون كافيه».

ضحك شابان وقال:

- هل من الممكن أن يُعزم أحد في منزله؟

هنا تذكر حلمه مرة أخرى، وسأله:

- يا ترى هل من الممكن أن يُعزم أحد في منزله؟

رد عليه شابان بعد قهقهة أجبرته أن يضع كلتا يديه على كرشته ليوقف اهتزازها:

- بشرط أن يكون قد أعطى نفسه بطاقة دعوة كي لا يتفاجأ بالزيارة.

ثم جلسا يشربان القهوة معا.

مرة أخرى فتح مع شابان الحديث عن الرجلين اللذين سكنا في الشقة قبل أن يشترياها هو وزوجته. قال له شابان الذي بدا أكثر انفتاحاً هذه المرة:

- كما أخبرتك بالأمس. بالنسبة للساكن الأول أنا أعلم أن اسمه مصطفى أبرش، ويقولون إنه قريب لأحد كبار المسؤولين. وكان ذلك واضحا من السيارات التي يقودها، ومن هيئته وهيئة معظم ضيوفه، كان واضحا أنهم من طبقة ثرية جدا. في المقابل كان يُشاع عنه كثيراً، أنه غارق في مشاكل مالية كثيرة ومعقدة، لكن بسبب علاقاته مع كبار المسؤولين كان يُغض الطرف عنه. إلا أنه وكما أشيع عنه أيضا رفض الشراكة مع بعض النافذين في البلد، فتسببوا في إفلاسه والقبض عليه أكثر من مرة بتهمة التهرب الضريبي. وأتذكر وقتها جيدا، أن الجرائد كتبت عن تلك الفضيحة دون أن تشير بالاسم إلى أحد. أما في المرة الثانية التي

داهمته الشرطة فيها وأخرجته من الشقة مقيد اليدين، فقد كانت التهمة غسيل أموال. لا أدري لماذا حين رأيته يومها مقيداً مطأطئ الرأس، أشفقت عليه كثيرا!!

أخذ رشفة من القهوة، وهو ينظر في عيني شابان وقال:

- ماذا عن تفاصيل اليوم الذي انتحر فيه؟
- لا أدري، هل من حسن حظي أم من سوئه، أن صادف اليوم الذي أنتحر فيه، موعد زيارتي الروتينية لعيادة السكر. وعندما جئت في اليوم التالي، رأيت الشرطة قد أغلقت المنطقة بما فيها المقهى. وحين رأيت آثار دماء على الأرض. ظننت في البداية أنه حادث مروري. لكنني حين استعلمت الأمر. أخبروني أن هذا حدث عصر الأمس. وأن مصطفى أبرش الذي يسكن في الطابق الخامس قد ألقى بنفسه من شرفة شقته. أحسست بخدر يسري في جسدي، وباغتتني فكرة ملحّة ساعتها. كنت أتساءل: كيف هانت نفسه عليه؟

صمت لوهلة، ثم قال وكأنه يريد تغيير دفة الحديث.

- وهل بقيت الشقة بعد انتحاره شاغرة لوقت طويل؟

قال شابان وهو يعصر عينيه بإبهامه وسبابته وكأنه يحاول تذكر تاريخ ميلاد أحد أحفاده:

- ليس طويلاً، ربما سنة أو أقل بقليل. كان معظم من يأتي ليرى الشقة ويعلم بحادثة الانتحار، يصرف نظره فورا عن فكرة

شـرائها. وبـالأخص إذا كـانوا يصـطحبون زوجـاتهم الـلاتي كـن يخرجن مسرعات من الشقة، مخافة أن تحل عليهن لعنة المكـان كما كـنّ يقلـن. ولـن أنسى أبداً تلك المرأة السمينة جداً وهي تهرول باتجاه المقهى الذي ما أن وصلت إليه حتى صرخت في وجه أحد العمال: لا أريد هذا الكرسي البلاستيكي، أحضر لي غيره. فخرجتُ إليها بكرسي خشبي، وغمزتُ للعامل الذي لم يفهم أن بدانتها المفرطة سبب عقدتها من الكراسي البلاستيكية. وفور أن جلستْ، أخرجتْ من حقيبتها مروحة يدوية وقالت وهي تتأفف وتلوّح بها على وجهها وتنظر إلي بعينين مرعوبتين: «تصور يا أنت، يريدونني أن أشتري مقبرة !!».

إلى أن أتى الدكتور خليل راعد، ذلك الرجل الرائع الذي إلى اليوم صورته لم تفارق مخيلتي. ودائمـاً ما أسأل نفسي: كيف لطبيب أنقذ حياة العديد من الناس، ويكاد يكون وقتها أشهر جراح قلب في جميع مستشفيات العاصمة، أن يعجز عن إنقاذ نفسه؟ صدقني، إلى الآن أنا غير مستوعب أنه ختم حياته الحافلة بالعناء الذي تلاه نجاح كبير، وعطاء أكبر، بتلك النهاية البشعة!! حقاً بعض الأقدار لا تليق بأصحابها.

(15)

بعد فترة من الصمت وتأمّل المارة، قال لشابان:

- هل يزعجك أن تخبرني كل ما تعرفه عن د. خليل راعد؟

بعد أن أخذ نفسا عميقا ورشفة من القهوة، وبدا وكأنه سيتحدث عن أحد الأولياء والصالحين، قال شابان:

بكل سرور، في أحد الأيام بينما كنت واقفا مع فتاتين طلبتا أن تتصورا معي. أتى رجل في الخامسة والخمسين من العمر تقريبا. بقي واقفا على مسافة لا تسمح له بأن يسمع ما تقولانه لي. وحين ابتعدت الفتاتان، اقترب مني وصافحني وقال بأدب جم:

- هل توجد في هذه المنطقة شقة للبيع؟

وكأني أعرفه منذ عشرات السنين، وضعت ذراعي على كتفيه وقلت له وأنا أُشير إلى المبنى:

- احسب معي، واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة. بالضبط تلك هي شرفة الشقة المعروضة للبيع.

سألني:

- هل تسكن في هذا المبنى الجميل؟

- يا ليت حبيبي، أنا صاحب هذا المقهى.

فقال ولمعة الفرح واضحة في عينيه:

- إذن سأبذل قصارى جهدي ليكون مثلك جاري.

ثم أتى أحد أصحاب المبنى -كان قد اتصل بهم- واصطحبه إلى الشقة ليلقي نظرة عليها. وبعد أيام جاءني وهو يبتسم وصافحني ضاغطا بكلتا يديه على يدي وقال:

- لقد أصبحنا جيرانا.

فقلت له:

- إذن من حقي كجار أن أتعرف على جاري الجديد.
- أخوك خليل راعد، أعمل في مستشفى عبدالرحمن مامي في أريانه.

وبعد بضعة أشهر، علمت أنه من أشهر جراحي القلب في العاصمة. عقل ذلك الرجل يوزن بالذهب. إلى الآن لا أتصور رجلا بذلك العقل وتلك الثقافة، يختار تلك الطريقة البشعة ليكتب بها نهايته، إلا إذا كان في الأمر سر لا يعرفه سواه. كان يُحب الجلوس كثيرا في المقهى. ونادرا ما يمر يوم دون أن يأتي. ولا أنسى خدماته الكثيرة لي، خاصة إذا احتجت وصفة طبية معينة، يأتيني بها فورا ومن دون مقابل. وكلما أردت أن أدفع له يرفض بإصرار. الغريب جداً جدا، أنه طلب مني عدة مرات أن يعمل جرسونا في المقهى، حتى إني أعطيته الزي الخاص بعمال المقهى، بعد إصرار منه. كنت أتعجب من تقبله لإساءات بعض الزبائن بصدر رحب. فكما تعلم أن الزبائن متفاوتون في الثقافات. كان بعضهم ينزعج من عدم قدرته على موازنة الصينية فتندلق القهوة على حواف الفنجان فيوبخونه وأحيانا يرفعون أصواتهم عليه، فيقابلهم بابتسامة، ويعتذر منهم بأدب

كبير. ويتقبل كل ما يقال عنه برحابة صدر. كنت أسمع أحيانا ما يدور بينه وبين الزبائن، وأقول في سري: لا يعلمون أن الذي أمامهم طبيب ومن أشهر جراحي القلب في العاصمة. لكنني ما زلت إلى اليوم متعجبا من رغبته في أن يعمل جرسونا، ولم أجد لتلك الرغبة ما يفسرها. كان غالبا حين عودته من عمله، يأتي ويطلب فنجانا من القهوة وفي بعض الأحيان يطلب هريسة. ودائماً يحب أن يجلس على هذه الطاولة قريبا مني. ويستبشر كثيرا كلما وجدها شاغرة. أحياناً عندما أراه جالساً لوحده، أذهب لأجلس معه نتحدث قليلاً. إلا إذا رأيته مشغولا بالأوراق التي غالبا تكون مفروشة أمامه على الطاولة. وبعد مرور ثلاثة أشهر تقريبا من سكنه، سألته عن زوجته وأولاده، فأخبرني بأنه غير متزوج مع أنه قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره، فقلت له ممازحا: لذلك أنت طبيب ناجح!!

في الأثناء تدخل د. رشيد مستفهما:

- ألم تلاحظ عليه أي سلوك غير طبيعي ولو في بعض الأيام مثلا؟

قال شابان وقد فتح عينيه على وسعهما ولوح بكلتا يديه:

- إطلاقا. بل على العكس تماما. كان يزداد دماثة في الخلق ورقيا في التعامل ونباهة متقدة يكتشفها بسهولة كل من يتعامل معه. وداوم على ارتياد المقهى بصفة شبه يومية، لدرجة أني وضعت لافتة (محجوز) على الطاولة التي يفضّل الجلوس عليها. وعندما لاحظ ذلك سُرَّ كثيراً، لكنه قال لي:

- لا أريدك أن تخسر زبونا بسببي. يمكنني أن أجلس على أي طاولة حين تكون هذه الطاولة مشغولة.

فقلت له:

- «قبل أن تكون زبوني، أنت جاري. وحق الجار على الجار كبير جدا».

أصبح المقهى بيته الثالث كما كان يقول، بعد شقته والمستشفى. بعض الأحيان يأتي مصطحبًا بعض زملائه. وجل كلامهم عن الطب والمتغيرات في الفحص وطرق العلاج. وحين لا أراه لعدة أيام، أعلم أنه مسافر إلى باريس أو نيويورك أو جنيف. إذ كان دائما ما يُشارك في مؤتمرات طبية عالمية. وفي كل سفرة، لا يفوته أن يحضر لي هدية رمزية أنيقة. آخرها كانت زوجا كلاسيكيا من أزرار أكمام قميص البدلة. أتذكر يومها أني قلت له:

- سألبسهما في حفلة زفافك.

فضحك كثيرا، وقال:

- إذن لن يغادرا علبتهما.

استمر الوضع هكذا إلى ذلك اليوم المشؤوم الذي لا يزال ثقله جاثما على قلبي. ففي اليوم الذي حصل فيه ما حصل. أتى من المستشفى عصرا، جلس في مكانه المعتاد، وطلب فنجانا من القهوة. كنت يومها مشغولا مع بعض الزبائن الذين لا يعجبهم العجب، فقلت سأنتهي منهم وأذهب إليه. لكنه بدا وكأنه في عجلة من أمره. لدرجة أنه لم يكمل فنجان

قهوته الذي وضع تحته مائتي دينار لأنه كذا مرة لم يدفع الحساب. ناداه الجرسون:

- مائتا دينار كثير جدا.

لكنه لم يلتفت إليه وخرج مسرعا. هنا تدخل د. رشيد وسأل شابان:

- قبل أن تكمل لي ما حدث، لم تخبرني من أين جاء، ومن هم أقاربه؟

«صحيح لقد نسيت أن أخبرك»، رد عليه.

ثم أضاف:

- إنه من منطقة بن قردان وكان من البدو الرحل. أتذكر أنه أخبرني أن هذه المنطقة تبعد عن العاصمة تقريبا ستمائة وخمسين كيلومترا. لكنه لم يذكر لي شيئا عن أهله. ولم ألاحظ أن أحداً منهم قد زاره في شقته.

- حسنا، الآن حدثني عن يوم الحادث بالتفصيل الممل.

«كما قلت لك قبل قليل، انصرف من المقهى مسرعا وكأن أحدا ما ناداه، فلباه مسرعا. لمحته ينصرف وأنا مشغول ببعض الزبائن. كان الوقت يقترب من الخامسة عصرا، وكما تعلم هو وقت الذروة في شارع الحبيب بورقيبة. فجأة علا صراخ الناس وهم يتراكضون جهة المبنى. ذهبت لأرى ما الخبر، فتفاجأت مثل غيري بجثة رجل ساقطاً على وجهه، والدم يفور منها مثل النافورة. للوهلة الأولى لم نتعرف على

الجثة، فتجمع الناس وقلبوا الجثة، لم أصدق عيني عندما رأيته متهشماً وغارقاً في دمه.

جاءت الشرطة وطوقت المكان وبدأت تبعد الناس المتجمهرة». ثم أضاف شابان وهو يضيق على عينيه:

- هناك شيء محير في مكان سقوط جثته. فقد سقطت على بعد سبعة أمتار تقريبا من المبنى. وكأن مدفعاً قذفه من الشرفة. وهذا الشيء تحديدا أثار شكوك رجال الشرطة بأنها جريمة قتل. لكن عندما اقتحموا الشقة لاحظوا أن الباب مقفل من الداخل وأيضاً بمزلاج. ورأوا أن كل شيء طبيعي ولم يجدوا أثرا واحدا لدخول شخص غريب في الشقة.

طلب منه أن يدله على مكان سقوط الجثة. فقام واقتاده من يده وذهبا إلى مكان على الرصيف، هنا تماما، وضرب الأرض برجله. بينما جثة مصطفى أبرش سقطت هناك أمام محل بيع الهواتف الذي على يمين مدخل البناية بالضبط.

(16)

قُبيل أن يهم بالاستئذان أمسكه شابان من يده، وقال له بصوت ضعيف، وكأنه سيُفشي له سرا خطيرا:

- على فكرة، بما أنك مهتم بقضية د. خليل التي أرى أنها جديرة باهتمام رجل مثقف مثلك، يوجد عند إدارة المبنى الذي تسكنه، بعض الأوراق والوثائق الرسمية الخاصة به. لأنهم على ما أتذكر لم يجدوا أحداً من أقربائه ليسلموه إياها. حاول أن تتواصل معهم، فقد يسمحون لك بالإطلاع عليها إن كانوا لا يزالون محتفظين بها، وربما تجد فيها السبب الذي دفعه لتلك الخاتمة المحيّرة.

راقت له الفكرة، ووعد شابان بأنه سيفعل ذلك، ثم كرر له أن يُبقي هذا الموضوع سرا بينهما وانصرف عنه. في الطريق إلى شقته أرسل رسالة إلى زوجته كتب فيها أنه من سيُعد الغداء اليوم. فقرر أن يعد طبق كسكسي كالذي أكله في بيت سيدي يس. وأضاف إليه طبقا من السلطة التي يُجيد تنسيقها جيدا. كانت الساعة في حدود الرابعة والنصف عندما فتحت زوجته باب الشقة وقالت له:

- بصراحة الرائحة في غاية الروعة. أتمنى أن يكون الطعام كروعة الرائحة!!

ذهبت لتغير ملابسها وأنهى هو آخر لمساته على السفرة، وقال بصوت تسمعه:

- الشيف رشيد يرحب بطبيبة العيون التي سرقت عيناها قلبه وعقله وسنوات عمره!

أتته ضاحكة وقالت:

- بصراحة أنا محظوظة بزوجي متعدد المواهب.

وحين تذوقت الطبخة قالت له:

- امممممممم لذيذة.

ثم أضافت وهي تغمز بإحدى عينيها:

- لكن اصدقني هل تُشبه ما أكلته في زعفرانة؟

أجابها وهو يضع ملعقة من السلطة في فمها:

- صدقيني، سَلطَتي ألذ بكثير!!

بعد الغداء قالت له: «الآن جاء دوري يا زوجي العزيز. اسبقني إلى الشرفة سأغسل الصحون وأعد كوبين من الشاي وآتي إليك».

كعادتهما دائما يفضلان الجلوس في الشرفة، كل مساء. وكأن الشمس لن تغرب إذا لم تجدهما جالسين في الشرفة وأمامهما كوبا شاي أو قهوة فارغان. وضعت زوجته الكوبين على الطاولة وجلست مسترخية على الكرسي الآخر. أغمضت عينيها، وأخذت نفسا عميقا ثم قالت:

- المكان هنا من الروعة بحيث يُنسيني تعب نهار كاملٍ في المستشفى.

قطف بضع ورقات نعناع من أصيص وضعاه قرب الطاولة، ووضعها أمام أنفه وأخذ شهيقا عاليا، ثم وضعها في كوب الشاي. أخذ رشفة ونظر إلى الشمس الواهنة وقال:

- لقد رأيت حلما غريبا جدا ليلة البارحة.

«البارحة فقط؟». قالت ذلك وهي تنظر إليه بتعجب، وكأنها كانت تنتظره كي يقول تلك الجملة بالضبط. ثم أضافت:

- منذ ما يقارب الأسبوعين وأنت يا حبيبي أحلامك لا تقل غرابة عن يقظتك.

تبسَّمَ وشرع يقص عليها حلمه وكيف أنه وجد نفسه معزوما في شقته وأنه من فتح الباب لنفسه !! كانت تصغي إليه باهتمام. وما أن أنهى كلامه حتى قالت:

- أرى أن الأحلام الغريبة ليست إلا أحاديث العقل التي يخجل أن يقولها في اليقظة. أليس كذلك؟

بعد برهة تفكير في كلامها قال:

- ربما يستغل العقل غياب الوعي، لينطلق هنا وهناك بلا قيود، وتكون النتيجة هذه الرؤى الغريبة لدرجة التناقض تارة. والمحسوبة بمنتهى الدقة تارة أخرى.

تكرر في الليلة التالية نفس الحلم. إذ رأى نفسه مدعوا في شقته، وأنه الضيف والمُضيف في نفس الوقت!! في الصباح تناولا طعام الفطور معا وخرجا في الوقت نفسه كل واحد منهما إلى عمله. حين انتهى من جميع

محاضراته اتصل بإدارة المبنى، وسألهم إن كانوا لا يزالون يحتفظون بالوثائق الخاصة بالدكتور خليل راعد أم لا؟ فقال له الرجل الذي رد على مكالمته، بعد أن ظن أن أحدا من أقارب د. خليل قد زاره في شقته، كونه اشترى الشقة ذاتها التي سكنها د. خليل راعد:

- نعم توجد لدينا كل وثائقه. ونتمنى أن تخلصنا منها إن كنت تعرف أحدا من أهله. نحتفظ بها في صندوق كرتوني تستطيع أن تتسلمه متى ما أردت ذلك مشكورا.

وبينما كان خارجًا من مبنى الكلية، سمع صوتا يناديه. التفت فوجدها توحيدة التي ما أن تأكدت أنه يسمعها حتى قالت:

- لدي خبر سيزعجك.
- خير إن شاء الله؟

قالت بدهشة وهي حزينة وتنظر في عينيه:

- للأسف رفض أهل رقية استلام جثتها!!

تظاهر بأنه لا يعلم شيئا وسألها:

- لماذا؟
- لا نعلم فالجميع مستغرب من هذا التصرف الفظ.

رد عليها محاولا تبديد دهشتها: «تأكدي يا توحيدة، أن ما ترينه في كل إنسان، ما هو إلا الصفحة التي سمح لك أن تتصفحيها. بينما تبقى صفحات كتابه الأخرى إما موزعة على آخرين كلا بحسب موقعه منه، وإما يحتفظ بها لنفسه فقط. كل إنسان يخوض معارك عديدة في الحياة.

وتنعكس انتصاراته وهزائمه على نظرته للحياة من جهة، وأسلوب تفاعله مع البيئة المحيطة به من جهة أخرى. كما أن لماضيه ونشأته ووضع عائلته المادي والثقافي دور كبير. وهذا ما يجعل الآخرين لا يرون منّا إلا الوجه الذي يقابلهم. كل إنسان منا له وجه للغرباء وآخر للناس المقربين ووجه غيره للمقربين من المقربين. لكن يبقى في النهاية لكل إنسان وجه أو ربما عدة أوجه يخفيها عن الجميع!!».

قدم لها التعازي ناصحا إياها بمحاولة تجاوز الحادثة رغم بشاعتها، والانشغال بالدراسة قدر المستطاع. وانصرف راجعا.

عند مدخل المبنى، وجد عامل الصيانة ينتظره. رحب به وقال له:

- تعال معي يا دكتور.

أخذه إلى غرفة أسفل الدرج تشبه القبو. يضعون بها أدوات التنظيف وعدة سباكة وبعض المصابيح الجديدة. أشار العامل إلى صندوق كرتوني متوسط الحجم وقال له:

- هذا هو الصندوق أين تحب أن آخذه لك؟

رد عليه:

- سأحمله بمفردي.

- دعني أحمله عنك. إنه ثقيل.

حين دخلا الشقة، أشار للعامل بيده إلى باب نصف مفتوح قائلا:

- ضعه في تلك الغرفة.

يوجد في الشقة غرفتان. واحدة وهي الأكبر خصصاها لهما. بينما بقيت الأخرى تنتظر شقاوة الأطفال الذين طال انتظارهم دون جدوى، فحولاها إلى مكتب صغير. شكر العامل وناوله بعض النقود وشيعه إلى الباب. وبمجرد أن أغلق الباب، توجه مسرعا إلى الصندوق مستغلاً غياب زوجته. أخذ ينكش في الأوراق والمستندات. وجد جواز سفر باسم خليل راعد وبطاقة هوية وبطاقات دخول المستشفى. كما وجد ملفاً صغيراً عندما فتحه تطايرت منه ذرات غبار أدخلته في نوبة عطس أفقدته توازنه. ذهب إلى دورة المياه يغتسل، ثم عاد للملف واضعا هذه المرة كمامة وقفازين طبيين. وجد أن الملف به جميع شهادات د. خليل. وكانت المفاجأة أن جميع شهاداته الجامعية امتياز مع مرتبة الشرف. تساءل: ما الذي دفع رجلا بهذا النبوغ للانتحار؟ وبينما هو مستغرق في تصفح الأوراق، لفت انتباهه جزء من ورقة لونها أخضر فسفوري ساطع وسط الأوراق التي كانت معظمها طبية. سحبها وتسمّر مكانه عندما قرأ: «رقية بنت غريب» وفي الأسفل رقم، بدا واضحا أنه رقم هاتف.

(17)

بعد أن تناول وزوجته الغداء، جلسا في الشرفة. كانت زوجته قد سبقته بفنجاني قهوة، ثم لحقها وفي يده مقص أظافر وفي الأخرى نظارة قراءة. وقبل أن يجلس لوح بيده مبتسماً، فعلمت أنه يلوح لشابان. تحدثا قليلاً عن شابان وطيبته وكفاحه ونجاحه الذي ارتأيا أنه نابع من عزيمته وحسن إدارته، وأيضا من تقبّله للآراء والمقترحات التي تُطرَح عليه، كتقبله لاسم شابان بون كافيه من فتاة صغيرة سليطة اللسان كما أخبرهما. وأيضا عندما وافق أن يضع العربة في المقهى، ويطبع صورتها على الفناجين والصحون وكأنها شعار للمقهى، وهو ما اقترحته عليه زوجته.

- ألم تلاحظ أن شابان أصبح يعرف وقت جلوسنا في الشرفة؟

قالتها زوجته وهي تتأمل حركة الناس في الشارع، فرد عليها وهو مشغول بتقليم أظافره:

- لا تنسي أننا جيران منذ سنتين تقريباً.

ثم أضاف ضاحكا:

- وليس بيننا وبينه إلا مسافة خمسة طوابق فقط.

بعد فترة قصيرة رن هاتفه وهو لا يزال مشغولا بتقليم أظافر يده اليسرى، التي يتطلب تقليم أظافرها منه جهدا مضاعفا يضطره أحيانا لأن يستعين بزوجته. حينما لاحظت انشغاله، أرادت أن تقوم لتحضر له الهاتف.

قال لها:

- اجلسي إذا كان الاتصال مهماً سوف يعاود المتصل الاتصال من جديد.

بعد وهلة رن الهاتف مجدداً فذهبت زوجته لتحضره. كان المتصل هو محمد طه لكن الاتصال انقطع قبل أن تصل بالهاتف إليه. عندما قرأ اسم محمد طه، اتصل بنفسه، وإذا بصوت محمد طه المرتفع، وأسلوبه العفوي يبادره بالاعتذار على الإزعاج، لأنه اتصل مرتين متتاليتين.

- لا أبداً يا رجل، لم تتسبب لي أي إزعاج. طمني عليك وعلى سي غريب ودادا مبروكة.
- جميعنا بخير والحمد لله.

ثم أضاف بنبرة سريعة وجادة:

- بصراحة اليوم زارني سي غريب وأثر الحزن والندم بادٍ عليه. وقال إنه يريد أن يتسلم جثة ابنته من المستشفى لدفنها في مقبرة البلد مع أخيها وأختها، وهو يطلب مساعدتك.

صمت لبضع ثوان، لأنه كان يعلم أن البلدية قد أخذت الجثة في اليوم السابق ودُفنت في المقبرة العامة. ثم قال:

- أبلغ سي غريب مني السلام. وأخبره بأني نيابة عنه وتقديرا له ولزوجته دادا مبروكة، قد تسلمت جثة رقية، وذهبت بها إلى الجامع، حيث غُسلت وصلى عليها عدد كبير من الناس. ثم شيعناها إلى المقبرة وكان عدد المشيعين كبير أيضاً، إلى أن

أرقدناها في قبرها معززة مكرمة. وأرجو أن تبلغ والديها سلامي وأخبرهما أني فعلت ذلك تقديرا لهما ولكرمهما الذي غمراني به.

ثم أغلق الهاتف. نظرت إليه زوجته باستغراب كبير، وقالت:

- ليس من طبعك الكذب حتى في أحرج المواقف. لماذا لم تقل له الحقيقة؟
- فعلاً أنا كذبت. لكنهما لوعرفا الحقيقة سيبقيان طوال حياتهما نادمين لأنهما في النهاية أم وأب. ويبدو أنهما ومنذ زيارتي لهما وهما يفكران ليلاً ونهاراً، حتى سامحاها وقررا تسلّم الجثة ودفنها مع أخيها وأختها. فلو عرفا أنها دفنت عن طريق البلدية، سيترك ذلك جرحا عميقا في قلبيهما، وشعورا بالذنب لن يسامحا عليه نفسيهما مدى الحياة. ولذلك فقط، اختلقت ما سمعته يا عزيزتي.

صمتت تفكر في كلامه، ثم قالت:

- أحيانا أشعر أني وأنت مثل اجتماع نقيضين. أنا طبيبة. وكل شيء عندي علمي ومادي، ولا أثق إلا في الأرقام. أما أنت فأستاذ فلسفة. تميل إلى الجانب المعنوي والحياة الموازية للحياة المادية.
- قد أوافقك يا عزيزتي في بعض ما قلته، إلا أنني لا أرى في زواجنا اجتماع نقيضين، أكثر مما أرى أن كلينا يكمل الآخر. ذلك لأن كل واحد منا يجد عند الآخر ما يُكمل الصورة عنده.

في اليوم التالي كان في الجامعة يتحدث في إحدى محاضراته عن اختيارات الإنسان وقراراته. وأن كل حركات الإنسان وسكناته من استيقاظه من النوم، وحتى عودته إلى النوم مرة أخرى، ما هي إلا سلسلة من القرارات التي تدخل في تحديد مصير كل إنسان، مهما بدت تلك القرارات صغيرة وغير مهمة. يفتح عينيه في الصباح فيقرر هل يدع السرير، أم يبقى فيه؟ ويقرر ماذا يأكل وجبة في الإفطار، وأن يخرج من المنزل أم لا. كل هذه القرارات كما هو واضح، قرارات بسيطة جدا لكن يترتب على نتائجها الطابع العام لحياة الإنسان وشخصيته بل ومستقبله. تساءل أحد الطلبة قائلا بعد أن استأذن:

- بعض القرارات التي نقررها، تكون لها نتائج خارجة عن الإرادة.

فقال له:

- فهمت قصدك. توجد قاعدة تقول: إن المشي على الأرض، ليس كالسقوط عليها. الإنسان يمشي بإرادته على الأرض، وبقرار صادر عنه. لكنه لو تعثر أو أصابه شيء، فذلك حتما شيء خارج عن إرادته. السقوط قد يكون بسبب خطأ ما أو انشغال بشيء كالأزمات، أو شرود ذهن أو سرحان وأحلام يقظة. وقد يكون بسبب سوء تقييم أو قصور في دراسة الشيء قبل التنفيذ. حزمة من التداخلات، وسلسلة من الأسباب تؤثر في قراراتنا ونتائجها. بعضها إرادي والآخر لا إرادي. لكن في النهاية، يجب على الإنسان بمجرد حدوث هذا الشيء الطارئ كالسقوط مثلا، أن

يبادر إلى معالجة الموقف، عوضا عن اليأس والاستسلام، أو لوم الآخرين.

كانت تلك آخر محاضرة له في ذلك اليوم، بعدها رجع إلى الشقة. وأثناء مروره بالحديقة التي تفصل الجامعة عن محطة الميترو جلس على الكرسي ذاته الذي وضع عليه قطعة البسكويت للعصافير في الأسبوع الماضي، يتذكر بعض الأحداث ثم أخرج هاتفه وشاهد عدد الطيور. وتلقائيا انتقل إلى صورة النمل وكبر الصورة فلمعت في رأسه فكرة. أعاد الهاتف إلى جيبه، واستقل الحافلة إلى شارع الحبيب بورقيبة. دخل محلا للطباعة والتصوير. التفتت إليه فتاة كانت ترتب بعض الصور. تفضل أستاذ. أخرج هاتفه وأراها صورة النمل مع كسرة البسكويت، ثم قال:

- أريد أن أطبع هذه الصورة. ما المقاسات التي لديكم؟
- أي مقاس تختاره أنت, A3, A5, A4.

سألها فيما لو اختار مقاس A3 هل ستكون الصورة واضحة؟

قالت الفتاة وهي تمازحه:

- سوف يكون بإمكانك حتى أن تعد النمل الذي في الصورة.

ابتسم لتعليقها الذي أدهشه، وسألها:

- متى يمكنني تسلّم الصورة؟
- سوف تأخذ بضع دقائق فقط. يمكنك الجلوس.

وما هي إلا دقائق حتى أرته الصورة ليُلقي عليها نظرة، ثم لفتها وناولته. فأخذها وعاد إلى الشقة. عند دخوله توجه مباشرة إلى مكتبه.

وقبل أن يفرش الصورة على طاولة المكتب، شاهد الصندوق الكرتوني الذي فيه وثائق د. خليل راعد. توجه نحوه، وأخرج الورقة الملونة التي فيها رقم هاتف رقية غريب. وبعد تردد بسيط، قرر الاتصال بالرقم. وفعلا رن الهاتف لكن لا أحد يرد. أراد أن يغلق الهاتف، لكنه سمع صوت نسائي يقول: أللووو.

- مساء الخير.
- مساء النور
- رقية بنت غريب؟
- نعم تفضل.

صمت لفترة، فجاء الصوت مرة أخرى:

- ألو من معي؟
- معك الدكتور رشيد أستاذ فلسفة في كلية العلوم الإنسانية في جامعة 9 أفريل.
- أهلين دكتور. تفضل هل أسدي لك أي خدمة؟

قال لها بعد أن اعتذر منها على الإزعاج: «هل تعرفين الدكتور خليل راعد؟».

صمتت، وبدا له أنها وضعت شيئا كان في يدها على الأرض، ثم قالت: «ونعم المعرفة».

فسألها:

- عفوا من معي؟

- معك الدكتورة رقية بنت غريب أخصائية أمراض قلب في مستشفى عبدالرحمن مامي، هل أنت أحد أقارب د. خليل؟

فأجابها: «هذه حكاية طويلة جداً. لكن هل كنت تعرفينه؟».

- أكاد أكون أقرب زملائه إليه في العمل. ودائما ما نتشارك في تشخيص بعض الحالات الصعبة.
- هل تمانعين إن زرتك في المستشفى؟
- أتشرف بك دكتور، أخبرني من أين أنت؟
- أسكن في شارع الحبيب بورقيبة. بالقرب من شابان بون كافيه.

قاطعته: «إذن سنلتقي هناك، فلطالما ذهبنا إلى هناك أنا والدكتور خليل وبعض الزملاء وشربنا القهوة وأكلنا من هريسته اللذيذة».

- حسنا إذن، أنت مدعوة لتناول القهوة في شابان بون كافيه. وبقي عليك تحديد الوقت.

فردت: أنا أحب أن أقضي مساء يوم الجمعة في شارع الحبيب بورقيبة.

- إذن اتفقنا، وأعتذر مرة أخرى على الإزعاج.
- بالعكس، تشرفت بك د. رشيد.

(18)

أغلق الهاتف، وجلس على كرسي المكتب. تناول الصورة التي ما زالت ملفوفة. وحين هم بفتحها سمع صوت باب الشقة يُفتح. علم أنها زوجته، فأرجع كل شيء، وخرج من المكتب الذي يتمنى أن لا تدخل زوجته إليه، لأنه لا يريدها أن ترى الصندوق. أو تعلم شيئا بخصوص د. خليل راعد. خرج إلى زوجته التي استقبلته بابتسامة، ثم لمسته بسبابتها في أنفه قائلة:

- لدي مفاجأة لك يا عزيزي.
- مفاجأة؟!
- نعم مفاجأة لا تخطر على بالك. أنتظر فقط إلى العصر.

وذهبت إلى المطبخ لتحضر الغداء. وفي حدود الخامسة عصراً، سمعا صوت جرس الباب الذي يشبه زقزقة العصافير.

- رشيد انظر من القادم، أنا مشغولة قليلاً.

فتح الباب وتفاجأ عندما وجد شابان وفي إحدى يديه علبة هريسة اللوز متوسطة الحجم، وفي الأخرى صندوق صغير مغلف بالمخمل الأزرق. ثم أتاه صوت زوجته وهي تقول دون أن تلتفت للباب أو للضيف:

- تفضل تفضل يا شابان.

ابتسم مرحبا بالضيف القادم. وقال وهو يشير بيده لشابان بأن يدخل:

- حقا إنها مفاجأة ما كانت لتخطر على بالي إطلاقا.

أراد أن يأخذ شابان ليجلسا في الصالة الأنيقة، لكنه رفض وقال:

- أفضل الجلوس في الشرفة إذا تسمح لي.
- بكل تأكيد الشقة كلها تحت أمرك يا جارنا العزيز.

أخذ ضيفه إلى الشرفة بعد أن تناول منه علبة الهريسة ووضعها على الطاولة. أراد أن يتناول العلبة الأخرى، لكن شابان خبأها وراء ظهره قائلا: هذه هدية الدكتورة.

ابتسم وأجلسه على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه، وجلس هو على الكرسي الذي تجلس عليه زوجته، فبدا المكان جديدا عليه. إذ نادرا ما كانا يتبادلان الكراسي في الشرفة. بعد دقائق أحضرت زوجته صينية القهوة، وذهبت إلى المطبخ لتحضر كرسيا صغيرا لها. قال شابان:

- شرفتكما أروع بكثير مما تخيلتها.

ثم أضاف:

- رأيت الدكتورة قادمة فسلمت عليها وسألتها إن كان بإمكاني أن أشرب معكما القهوة في الشرفة التي لطالما رأيتكما تجلسان فيها؟

قالت زوجته فورا:

- لقد حاولت أن أقنعه ليتغدى معنا، لكنه اكتفى بأن يشرب القهوة، وفي الشرفة!!

علق شابان مبتسما:

- أريد أن أنظر للشارع والناس من الأعلى. لأن أقصى ارتفاع وصلت له هو الطابق الثاني في بعض المصالح الحكومية.

كان شابان أكثر الموجودين فرحا. وكأنه طفل أعطي قطعة حلوى أو لعبة جديدة. فقد وجد في مُضيفَيْه تعويضا عن الفراغ الكبير الذي خلفته في قلبه نهاية د. خليل راعد الصادمة. أخذ رشفة من القهوة التي اعتاد مجبرا أن يشربها بدون سكر، وهو هائم في المنظر الجميل لشارع الحبيب بو رقيبة من ذلك العلو الشاهق بالنسبة إليه. كان كأنه يشاهد فيلماً سينمائياً جميلاً. الأشجار من الأعلى بدت له مثل خيام خضراء كبيرة يدخل الناس والسيارات فيها من جهة ويخرجون من الجهة الأخرى. ولأول مرة استطاع أن ينظر إلى شارع الحبيب بورقيبة من بدايته إلى نهايته تقريبا. بل إن الكنيسة الكاثوليكية كانت في غاية الوضوح. ثم طلب من د. منال بعد أن ناولها العلبة المخملية الزرقاء أن تفتحها. وكانت المفاجأة فنجانين أنيقين مع صحنيهما. قال لها:

- هذان الفنجانان هما أول نسخة لاقتراحك الجميل يا جارتي العزيزة، أردتكما أن تكونا أول من يطلع عليها، وأن تتقبلاهما هدية متواضعة مني.

تناولت أحد الفنجانين، بينما تناول زوجها الفنجان الآخر، وبهرتهما صورة العربة التي حين مررت أصابعها لاحظت انها كانت ببروز جميل يجسّم العربة موضحا بعض تفاصيلها العتيقة، وتحتها مكتوب بخط فرنسي بارز أيضا «شابان بون كافيه». لم تصدق أنها تحمل بين أصابعها

فكرتها التي تحولت إلى واقع أجمل بكثير مما تخيلته وهي تقترحها على شابان الذي قال بعد أن سرته كثيرا نظرات الانبهار، وعبارات الثناء:

- «طبعا هذه نسخة محدودة ومخصصة للزبائن المميزين فقط. بينما ستكون على بقية الفناجين ذات الصورة والكتابة، لكن دون البروز الذي يكلف ثلاثة أضعاف قيمة الصورة فقط».

ثم طلب منها أن تقلب الصحن. سرت في جسدها قشعريرة فرح حين قرأت وبالفرنسية أيضا: «شكراً د. منال»، وتحت العبارة تاريخ اليوم الذي اقترحت عليه الفكرة.

«هكذا أكون قد رددت الحق إلى أصحابه»، قالها شابان ثم أضاف بعد أن أخذ رشفة من القهوة:

- على فكرة، هذا المنظر الجميل ومن هذا العلو ذكرني بحكاية قديمة حكتها لي جدتي وأنا صغير.

فقالا معا: «شوقتنا، فقصها علينا».

أخذ رشفة أخرى وألصق ظهره على مسند الكرسي واضعا إحدى رجليه على الأخرى، وقال:

- روت لي جدتي أن ثعلبًا شرهًا رأى حمامة سمينة فسال لعابه وقرر أن يأكلها. بقي ذلك اليوم بطوله يتتبعها، إلى أن رآها تنام فوق نخلة طويلة. وحين هبط الليل، وقف تحت النخلة التي تنام الحمامة فوقها وقال: «السلام عليكم أيتها الطيبة الأصيلة، والحبيبة القريبة، مساء الخير». التفتت الحمامة إلى الأسفل

فرأت الثعلب، وكانت قد لمحته يتتبعها طوال النهار. وردت: «مساء النور» ثم صمتت. ظل الثعلب على هذه الحال ما يقارب الأسبوعين، بعد انقضاء الأسبوعين دون ظهور بوادر اطمئنان من الحمامة، قال لها الثعلب ذات ليلة: «هل تعلمين أيتها الحمامة أننا أهل، وأن بيننا صلة قرابة، فأمي ابنة خالة بنت عم أمك، وكانتا تتزاوران؟». ردت الحمامة: «حقا!! أبلغ أمك العزيزة إذن سلامي ثم سكتت عنه». في اليوم التالي أتى الثعلب مرة أخرى، لكنه حين اقترب من النخلة التي تنام فوقها الحمامة زحف على الأرض كأنه مريض، إلى أن وصل تحت النخلة فأغمض عينيه وأخذ يئن ويئن، ثم قال بصوت متباك: «أنا مريض جدا أيتها العزيزة. لقد التصقت ذبابتان في عينيّ، فهل تكرمت ونزعتيهما بمنقارك؟». أرادت الحمامة أن تبين له أن حيلته مكشوفة. فنزعت بمنقارها ريشة من ذيلها ورمتها وأخذت تراقبها وهي تتأرجح في الهواء إلى أن سقطت على صخرة صغيرة، فانقض عليها الثعلب وعض الصخرة بقوة ظنا منه أنها الحمامة، فتكسرت أسنانه وسال الدم في فمه. فابتعد وهو يكظم صرخته ويجر خيبته. نادته الحمامة: إلى أين أيها الحبيب القريب؟ فالتفت إليها والدم يسيل من فمة وهو يقول: ليس لنا في القرب نصيب!!

(19)

قال لضيفه: «قصة جميلة يا جاري العزيز تجمع التشويق بالنصيحة والتوظيف للمخلوقات التي لم تشارك الإنسان العيش فقط، وإنما أضافت لحياته تفاصيل جميلة جداً».

رد شابان بأن الموروث في السابق كان يُتناقل عن طريق القصص التي تتوارثها الأجيال فيُحفظ بها التاريخ وتُخلّد السّير. لأن القصص ترسخ في ذهن الجميع حتى الأطفال الصغار، وتكون مصدرا ثريا للوعظ والنصح والترفيه أيضا، خاصة في وقت لم نكن فيه نعرف التلفزيون، ولا هذا الشيطان -وأشار إلى هاتفه- الذي سرق الإنسان حتى من نفسه. في ذلك المساء الجميل، وبعد أن شرب القهوة قال لمضيفه وزوجته:

- صدقاني لا أدري كيف أشكركما على هذه الأمسية الجميلة، وقبل أن أستأذنكما أريد أن ألتقط بعض الصور تخليدا لهذه الزيارة الغالية على قلبي.

قالا له: «اجلس يا رجل. أنت لم تشاهد أفضل الأوقات بعد».

وأصرا عليه أن يبقى لكي يرى غروب الشمس. وما أن رآها تزداد اصفرارا حتى قال بدهشة:

- هل تشاهدان هذا المنظر كل يوم؟

فابتسما وهما يهزان رأسيهما بالإيجاب. لوح لهما برأسه وتمتم:

- لهذا السبب أراكما تجلسان في الشرفة في مثل هذا الوقت كل يوم تقريباً.

وبدأ الليل يخلع عباءته على المكان رويداً رويداً. وبدأت الأضواء الجميلة للسيارات ولافتات المحلات تتراقص هنا وهناك، فتحول المكان إلى مهرجان جميل من الأضواء الملونة وهمهمة الناس وبعض صرخات الباعة المتجولين لكي يشدوا انتباه المارة. وكان المنظر أكثر من جميل وجديد بالنسبة لشابان. طلب منهما أن يلتقطا له بعض الصور للذكرى. ثم اقترح د. رشيد أن يلتقطوا صورة لهم جميعا سيلفي بحيث يظهر مقهى شابان في الأسفل. فلما رآها أعجب بها وقال لهما:

- من بعد إذنكما سأعلق هذه الصورة في المقهى.

فقالا: «لنا الفخر».

كان شابان يتصرف وكأنه مسافر. وبالنسبة له يعتبر نفسه مسافراً لأنه أحس أنه في مكان وزمان مختلفين عما اعتاد عليه. وقبل أن يهم بالاستئذان شكرهما على كرمهما وطيبتهما التي أشعرته أنه مع إخوته. وقال:

- بصراحة أنا أغبطكما على هذا المكان الذي بدون شك يستحقه مثقفان مثلكما كافحا كثيرا فحباهما الله بالكثير من الأشياء الجميلة.

التفتت إليه د. منال، وقالت: «لكنه لم يرزقنا أطفالاً». سكت الجميع برهة أنهاها شابان عندما قال:

- اسمعي يا دكتورة، لقد عشت حياة ملتصقة بالناس البسطاء وكانوا يتذمرون بسبب ما حرموا منه. وكنت أظن أن التذمر والمعاناة شيء يخص الفقراء فقط. لكنني عندما أنعم الله علي وأنشأت هذا المقهى، التقيت بالكثير من السياح والتجار ومسؤولين كبار في البلد. فكما ترين يكاد يكون «شابان بون كافيه» من أشهر المقاهي في شارع الحبيب بورقيبة. لكنني برغم هذا الزخم الكبير من الناس متفاوتي الطبقات والثقافات، الذين قابلتهم في حياتي، لم أر أحداً أُعطي كل شيء. دائما هناك شيء ناقص مهما بان لنا من بعيد أن ذلك الشخص محظوظ بمنصبه أو بأمواله أو بعائلته وعلاقاته. فبمجرد الاقتراب منه، تنكشف الأقنعة عن أشياء كثيرة ناقصة. إن تجاربي في معترك الحياة علمتني الكثير من الأشياء.

قال د. رشيد:

- فعلاً لم يُعط أحد كل شيء، ولم يُحرم أحد من كل شيء. في النهاية الإنسان يُعطى أشياء، ويُحرم من أخرى. لذلك البشرية تكمل بعضها البعض، فالمجتمعات عبارة عن خليط من الناس يُكمل بعضهم بعضا، ويساعد بعضهم الآخر.

علق شابان وهو يقف مستأذنًا:

- صدقاني، جميعنا يحاول التعافي من شيء ما.

ثم كرر شكره العميق وفرحته بتلك الليلة المميزة. رافقاه إلى باب الشقة، ثم عادا إلى الشرفة. كانت تجمع الأكواب حين التفتت إلى زوجها:

- ما رأيك في المفاجأة؟

- أكثر من مدهشة، لكن كيف خطر ببالك دعوة شابان إلى شقتنا؟

صدقني لم أوجه له دعوة. هو بنفسه عندما رآني عائدة من المستشفى، استوقفني وقال إنه يريد أن يشرب القهوة معنا في العالم العلوي. فقلت له مازحة:

- لماذا !! أين تعيش أنت؟

رد علي: أعيش في العالم السفلي!!

رحبتُ به فوراً، وحاولتُ أن يشاركنا الغداء، لكنه أصر على أن تقتصر الزيارة على شرب القهوة فقط. ثم وضعت يدها على خد زوجها وقالت وهي تنظر في عينيه:

- قبل أن أذهب إلى النوم أريدك أن تصارحني، ما بك هذه الأيام؟

- صدقيني لا شيء. هل سأكون متزوجا سرا مثلاً؟

ضحكت بصوت عال وقرصت حلمة أذنه وقالت مُمازحة:

- لن تجد مثلي.

ثم بجدية أضافت:

- ليست مسألة زواج، لقد مر على زواجنا أكثر من تسعة وعشرين عاما، لم أرك خلالها بهذا السرحان واضطراب النوم والأحلام.

كما أنك تتكلم كثيراً أثناء نومك مع شخص اسمه «موتائيل» ومعظم الكلام غير مفهوم. ولا أخفي عليك أني أحيانا أخاف منك وأترك لك الغرفة. أخبرني هل يشغلك أو يزعجك شيء؟ هل لديك مشكلة ما؟

- أبدا، ربما هي أحلام مزعجة بسبب حادثة وفاة رقية المأساوية، وما تبعها من أحداث أنت أكثر من يعرفها.

«أتمنى ذلك»، قالتها له وهي تجمع فناجين القهوة من فوق الطاولة. ثم وهي تدخل الصالة قالت بنبرة عتب:

- تصبح على خير.

بقي في الشرفة يتذكر مكالمته مع د. رقية غريب، متخيلاً سيناريو حوارهما القادم. ومحدداً في ذهنه أهم النقاط التي سيتطرق لها معها. وقبل أن يدخل لينام وقف عند درابزين الشرفة، فشاهد شابان في الأسفل مشغولا بتوجيه عماله. فابتسم عندما تذكر تصنيف شابان الذي قاله لزوجته عن العالم السفلي والعالم العلوي. تلك العبارة التي ذكرته بزيارته وزوجته إلى معظم الآثار الفرعونية في مصر.

(20)

مساء يوم الجمعة، أخبر زوجته وهما يرتشفان القهوة في الشرفة، أنه مرتبط بأمسية عمل الليلة، وأنه قد يتأخر قليلا. وسألها إن كانت تحتاج شيئا. شكرته متمنية له أمسية سعيدة. وذكرته بأن لا يُكثر من القهوة التي قد تكون جزءا من صراعه كل ليلة مع النوم، وموتائيل الذي نطقت باسمه مبتسمة وهي تنظر إليه بمكر. في الثامنة مساء توجه إلى شابان بون كافيه. وبمجرد أن رآه شابان، ابتسم وقال له:

- أهلا وسهلا بك في العالم السفلي.

ضحكا معا، ثم ذهب إلى الطاولة التي أخبره شابان سابقا أنها التي كان يجلس عليها الدكتور خليل راعد. سُرَّ حين وجدها شاغرة. سحب أحد الكراسي وجلس يتصفح هاتفه وينتظر ضيفته. اقترب منه أحد العمال وقال له: «قهوة مرة كالعادة؟». ابتسم له وهو يهز رأسه بالإيجاب.

جلس يرتشف القهوة وينظر إلى الشارع الذي يزداد صخبه في عطلة نهاية الأسبوع فيتحول إلى مهرجان تختلط فيه الأصوات بالأضواء مشكّلة سيمفونية رائعة جدا. وبينما هو جالس يستمتع بتلك اللحظات الجميلة، ملصقا الفنجان الدافئ على صدغه الأيمن، متوسلا صداعه النصفي أن لا يعكر صفو ذلك اللقاء المهم. فجأة سمع شابان يقول:

- أهلا وسهلا بالدكتورة رقية خطوة عزيزة، والله زمان يا دكتورة.

استرق النظر من خلف الأشجار التي تتوسط بعض الطاولات الموجودة في المقهى، فرأى شابان يتحدث مع امرأة عرف أنها ضيفته المنتظرة. كانت مختلفة عن الصورة التي رسمها لها في ذهنه. لقد تصورها أكثر شباباً، بينما هي كانت امرأة في أواخر الأربعينيات من العمر، قصيرة وبدينة. انتهز فرصة وقوفها مع شابان واقترب منهما ملقيا عليها التحية. التفتت إليه وبعد أن ردت التحية قالت:

- الدكتور رشيد أليس كذلك؟

رد شابان متعجباً: «نعم نعم، هل تعرفان بعضكما؟».

فعلق مبتسماً: «يبدو أننا عرفنا بعض، قبل أن نتعرف على بعض!!».

ثم قال للدكتورة رقية: «تفضلي»، وهو يشير إلى الطاولة التي كان جالساً عليها. قالت وهي تلتفت إلى شابان:

- أرجو أن يختار لنا شابان طاولة أخرى على ذوقه.

تفهم طلبها، وجلسا حول طاولة تعلوها مظلة لونها أخضر داكن، وعلى الطاولة منفضة رماد السجائر، اختارها لهما شابان. كان المقهى شبه ممتلئ ورائحة هريسة اللوز والقهوة تملأ المكان وموسيقى (المالوف) تدغدغ الآذان متى ما سمح لها الضجيج بذلك. وبين فترة وأخرى يأتي بعض الشباب والشابات يلقون التحية ويلتقطون الصور مع شابان الذي أصبح بمثابة الأب الروحي لمرتادي المقهى من فئة الشباب خاصة. الكل يود أن يلتقط صورة معه. كما أن بعضا منهم بعد يوم أو يومين يعود فيعطي صورته لشابان ليضعها في مكان خصصه شابان لعرض

الصور. ويسعد كثيرا عندما يرى صورته في اللوحة، وكأنها لوحة المتفوقين في إحدى الجامعات العالمية المرموقة. قال لضيفته بعد أن جلسا وتبادلا التحية والتعريف بنفسيهما مجددا:

- ما رأيك في هريسة اللوز مع القهوة؟
- وهو كذلك، ولتكن قهوتي مرة.

فأشار لأحد العمال وأخبره بطلبهما مشترطا عليه وهو يبتسم، أن تكون الأكواب من الأطقم الجديدة. ابتسم النادل وهز رأسه بالإيجاب. ثم قال مخاطبا ضيفته بعد أن اعتذر منها:

- ربما تفاجأت بي أو بالاتصال.

قالت:

- المفاجأة ليست في الاتصال، لقد اعتدت على هذا الأمر لأن الكثيرين كانوا يتصلون بي يسألونني عن د. خليل. وينتظرون مني أن أبدد قلقهم كأن أقول لهم مثلا إن هناك تشابها في الأسماء، وإن د. خليل حي يرزق. بالأخص بعض مرضاه الذين يرون أنه السبب الوحيد لبقائهم إلى الآن على قيد الحياة. وذلك عائد إلى مهارته الكبيرة التي مكنته من إجراء عمليات معقدة جدا لحالات كان يُعتذر عن علاجها في المستشفيات الأخرى. لكن الشيء الغريب الذي جعلني أتفاجأ باتصالك، هو الفارق الزمني الكبير. إذ مر إلى الآن ما يقارب سبع سنوات منذ وفاته. هيا أخبرني منذ متى وأنت تعرفه؟

قال لها:

- لم أره في حياتي قط.

فتحت عينيها متعجبة: «لم تره في حياتك؟!!».

- ولم أسمع عنه حتى.

- إذن ما القصة، ومن أنتَ؟

أجابها بصوت منخفض: «أنا أسكن الآن في نفس الشقة التي كان يسكنها د. خليل».

صمتت. ثم وكأنها تفتح كتابا قديما، التفتت ناحية البناية التي حجبت مظلة الطاولة شرفات طابقها الخامس. ومن دون أن تعود بوجهها إليه سألته:

- منذ متى وأنت تسكن في تلك الشقة؟

- منذ حوالي السنتين.

- وما الذي تود معرفته مني بالضبط؟ فأنا لم أدخل الشقة، ولا أظن أن أحدا من الزملاء قد دخلها.

- أود معرفة كل شيء تعرفينه عنه. ففي اليوم الذي حدثتك فيه، كنت قد حصلت على صندوق فيه بعض الوثائق مثل جواز سفره، بطاقات الهوية، شهاداته ومن ضمنها الورقة التي كان عليها اسمك ورقم هاتفك. وزاد حيرتي كفاءة الرجل خاصة حين اطلعت على شهاداته العلمية، عرفت أنه نابغة بكل معنى الكلمة. أيضا زادني كلام شابان عنه فضولا وحيرة. كيف لشخصية بهذا

التميز الأكاديمي، والثراء المعرفي، والنجاح المهني، أن تقدم على تلك النهاية المأساوية التي لوثت أعواما مليئة بالجد والاجتهاد والعطاء؟ ولأني كما أخبرتك في الهاتف، أستاذ فلسفة، فقد ولّدتْ المعلومات القليلة التي عرفتها عنه عندي علامات استفهام كثيرة أبحث عن إجابات لها. وحين قلتِ في المكالمة أنك تعرفينه عز المعرفة، تشجعت كثيرا للقائك. نعم في كل إنسان يختبئ إنسان آخر. لكن أن يكونا بهذا التناقض العجيب، ومن شخصية غاية في التفوق الحياتي، فذلك لا بد أن تكون له أسبابه العميقة جدا. وهي ما أحاول معرفتها، أو بعضا منها.

(21)

أخذت رشفة من القهوة، ثم بعد برهة من الصمت وهي تتأمل صورة العربة على الفنجان، التفتت إليه وقالت:

- بداية يجب أن تعلم أن كل ما سأقوله لك عن د. خليل، عبارة عن أحداث ومواقف مر عليها قرابة سبع سنين. لكنني آمل أن أستطيع مساعدتك في محاولتك النبيلة في الكشف عن ملابسات رجل أجمع كل من التقى به، على أنه رجل من طراز نادر. ولا يستحق فعلا تلك النهاية التي تركت عدة تساؤلات عند كل من عرفه. لستُ الوحيدة التي تعاملت معه ولفت انتباهها نبوغ هذا الرجل ممزوجا بأسلوب تعامل مهذب جدا. فالكثير من الزملاء والزميلات كانوا يُثنون على أسلوبه الراقي جداً، ودماثة خلقه في تعامله اليومي معهم. أما عن مهاراته الطبية، فحدث ولا حرج. فلقد كانت جلية منذ أيامه الأولى معنا. وبحكم تخصصي الطبي كنت الأقرب في التعامل اليومي ومناقشة معظم الحالات الحرجة التي تدخل المستشفى، والتي زادت في السنتين اللتين قضاهما د. خليل معنا. ومن الطبيعي أن تميّزه هذا يلفت أنظار الجميع إليه، بين معجب وحاسد. في النهاية الأطباء بشر.

ثم أضافت مبتسمة:

- أما نحن النساء، فكان شغلنا الشاغل معرفة سبب عزوفه عن الزواج الذي كان مصدر بعض التهكمات بين الزملاء. خاصة أنه حين انتقل للعمل معنا في مستشفى عبدالرحمن مامي، كان في الخامسة والخمسين تقريبا. وأتذكر في يوم من الأيام، وكنا معا في مقهى المستشفى، أنني قلت له:

- «إن هذا المستشفى مليء بالممرضات والطبيبات العازبات والجميلات، فلماذا لا تختار إحداهن؟ وأنا على أتم الاستعداد للمساعدة.

لكنه صدمني برده بعد برهة صمت بددتها أنا حين قلت له:

- هيييه لا تحاول الهرب مني.

ضحك وقال:

- تصوري أنا أركض وأنت تركضين ورائي.

فقلتُ فورا:

- وجميع العازبات في مستشفى عبدالرحمن مامي يركضن وراءنا.

ضحكنا كثيرا ونحن نتخيل المشهد. ثم بدا الجد على ملامحه وعلق على تساؤلي:

- قد تتعجبين مما سأقوله لك. فأنا أرفض بشدة فكرة تكوين أسرة.

صدمني رده. ووضعت يدي على فمي، وأنا أنظر إليه بدهشة. بصراحة لم أكن أتوقع ردا كهذا من شخص مثقف ومتعلم مثله، ولم أُهيئ نفسي أصلا لموقف شل تفكيري. ثم استجمعت قواي، وواصلت مناورة الأنثى التي لا تريد أن تستسلم خاصة عندما تحاور رجلا تعرف في قرارة نفسها أنه أذكى منها، وقلت له:

- إن الأسرة هي نواة الحياة والحب وكل شيء جميل ومثمر. وفي النهاية لولا الأسرة لما وُجدنا أنا وأنت هنا.

ثم أضفت وأنا أنظر إليه نظرة ماكرة:

- موقف غريب كهذا، لا يجب أن يصدر من رجل مثل الدكتور خليل راعد. فحتى المتزوجات تمنين لو أنهن عرفْنه قبل أن يصبحن زوجات وأمهات.

أتذكر يومها أنه ضحك حتى دمعت عيناه، ثم علق على كلامي بأن موقفه ليس غريبا نظرا لبعض الظروف التي مر بها، فأوصلته مجبرا إلى هذه القناعة. كان رده غريبا، لكن من الطبيعي أن نختلف في قناعاتنا. في النهاية قناعات كل إنسان نتاج للظروف التي عاشها، والتجارب التي عبرها أو عبرته. وبمرور الوقت تتشكل هذه القناعات التي سرعان ما تتحول إلى سلوك ونمط حياة. عاودتُ بعدها الكر والفر معه وأنا أقول:

- كلامك صحيح، لكنه عام. أخبرني عنك أنت».

فاتفقنا أن نلتقي هنا في شابان بون كافيه، والذي كان يقول لي بأنه يعتبره مكانا مقدسا بالنسبة إليه. وكان يكنُّ حبًا كبيراً لشابان. التقينا مراراً هنا، خاصة على تلك الطاولة التي اخترتها أنت وأظنك متعمداً. على فكرة، كان د. خليل نادر التطرق لماضيه وحياته الخاصة. إلا أنني استطعت أن أجعله يثق بي ليس كزميلة عمل فقط، وإنما كأخت وصديقة. وبصراحة لو عاش حياته مثل باقي أفراد عائلته، وامتهن مهنتهم المتوارثة، ما كنا عرفناه.

قال لها وهو يهز رأسه:

- عفواً، لم أفهم.

نظرت د. رقية لساعتها، وقالت:

- حسنا الوقت يكفي لأقص عليك ما اختصني به من سيرته الذاتية، إلا إذا كان وقتك لا يتسع.

فرد عليها:

- بالعكس كلي آذان صاغية حتى الصباح.

ابتسمت وهي منهمكة في أخذ قطعة من الهريسة التي تيبس السكر على سطحها، وقالت اسمعني إذن:

«وُلد د. خليل في تطاوين، وهي كما تعلم في أقصى الجنوب التونسي. لأسرة من البدو الرحل. أولئك البدو القلائل جدا الذين ليس لهم انتماء لأي مكان. لأنه وكما تعلم بأن معظم البدو نزحوا إلى القرى والمدن القريبة منهم لكي يتمكنوا من تعليم أولادهم. إلا أنه ولد ونشأ في عائلة

من تلك التي رفضت بشدة المدنية. وحتى حينما أرادت الحكومة منحهم بعض الخدمات كالمدارس والمصحات العلاجية، بشرط أن تضمن استقرارهم في مكان واحد، رفضوها. لأنهم رأوا أن الحكومة تريد أن تقضي على تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم التي توارثوها أبا عن جد. كانوا رعاة إبل، يتنقلون من مكان إلى آخر بحثا عن المرعى والماء. وعلى فكرة قبل يومين فقط، قرأت في إحدى الصحف المحلية التي أفردت ملحقا خاصا بهم، أن أعدادهم محدودة جدا ونادرة جدا جدا، لكنهم موجودون إلى يومنا هذا، ومتمسكون بنمط حياة قاس، وعادات وتقاليد مقدسة لا يجرؤ أحد على مخالفتها. المهم أن د. خليل ولد في بيئة بدوية بامتياز كما يقولون. ومن الطبيعي أن هؤلاء الناس يحتاجون للأسواق للتبضع ولشراء مستلزماتهم الضرورية، ولبيع منتجاتهم ومشغولاتهم اليدوية، لذلك يزورون أسواق بعض المدن للبيع والشراء الذي أحيانا يكون بالمقايضة.

وفي إحدى جولاته وهو طفل لم يتجاوز الثامنة مع والده في أحد الأسواق. لفتت انتباهه عمليات الجمع التي أجراها البائع في دفتر صغير وهو يستخدم القلم. سيطر هذا المشهد على عقله ليلا ونهارا. فأخبر أباه عن رغبته في تعلم القراءة والكتابة والحساب. لكن رد أبيه كان عنيفا جداً، لأنه يرى أن التعليم سيقضي على نمط حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم. إذ كم من البدو -في رأيه- خسروا أبناءهم بعد ما سمحوا لهم بالتعليم. لأن الأبناء بعد أن تعلموا رفضوا العودة لحياة البدو والرعي. وانتهى المطاف

بتلك الأسر إلى الحياة في قرية أو مدينة تلبية لرغبة أبنائهم وبناتهم، متنازلين عن مهنة الآباء والأجداد. وذلك في نظر والده في منتهى العار. وبعد أن تيقن أنه لا مجال للنقاش في موضوع الدراسة مع أبيه، قرر الهرب إلى حيث يمكنه تعلم القراءة والحساب، ولكي يعيش حياة مدنية طالما راودته في أحلامه. وفي إحدى الليالي المظلمة سرق بعض النقود وبعيراً من أفضل جمال أبيه، وسار في طريق كان واثقا أنه باتجاه واحد، لا رجوع فيه. لأن العودة يمكن أن تكلفه حياته. فالنظام البدوي لا يقبل هذه الأفعال ولا يغفر ولا يسامح».

(22)

«سرى على جمله طوال ليلة بكاملها، وجزءا من نهار، خوفـًا من أن يقتفي أثره أحد من عائلته، إلى أن لاحت له من بعيد مدينة بنقردان. فرح كثيرا، وبينما هو يسير في إحدى ضواحيها، شاهد مقهى شعبيا قديما وبسيطا جداً. كان جائعا ومتعبا، فتوجه إلى ذلك المقهى. وبمجرد دخوله فيه. وجد صاحب المقهى -وكان رجلا كبيرا في العمر- يحذر صبيـًا كان يبكي أمامه، ويقول له:

- إن عدت للسرقة مرة أخرى، سأطردك من المقهى. ولن أسمع لبكاء أمك وهي تتوسلني كي أعيدك للعمل مرة أخرى.

ثم فتش أحد جيوبه واستخرج بعض النقود، وقال له:

- اذهب ولا تُرِني وجهك اليوم.

بعد أن انصرف الصبي، اقترب من الرجل وقال له:

- أريد أن آكل.

نظر إليه الرجل بتمعن وقال:

- وماذا يُريد الغريب أن يأكل؟

- أي شيء. المهم أني جائع جدا.

بعد أن انتهى من طعامه، أزاح الصحن ونام واضعا رأسه على الطاولة، وصاحب المقهى ينظر إليه في استغراب. حين أفاق قام ودفع الحساب، ثم رجع إلى نفس الطاولة والكرسي وجلس والحيرة بادية على وجهه

الغض البريء. قام إليه صاحب المقهى والذي –بالمناسبة– اسمه (راعد) وجلس على الكرسي المقابل وقال له:

- لماذا لا تنصرف؟
- يا عم أنا غريب، وجئت هنا أبحث عن عمل.

أجابه: «من أنت، فملامحك لا تدل على أنك من هذا المكان؟».

- كما قلتَ قبل قليل يا عم، فأنا غريب أتيت من مكان بعيد. بحثا عن عمل. أريد أن أعيش من عمل يدي، فهل تحتاج إلى عامل في المقهى؟
- لا يوجد لدي عمل غير غسل الصحون، وتنظيف الطاولات والكراسي.

أجابه: «حسنا أنا موافق. ولدي جمل أريد أن أبيعه».

فقال له صاحب المقهى وهو يشير بيده إلى جهة الغرب:

- ستجد هناك سوقا لبيع الدواب، اذهب وبع جملك، ولكن انتبه لأنهم قد يستغلون صغر سنك.

فرح واستبشر كثيرا، وذهب إلى حيث وجهه صاحب المقهى. باع جمله بسعر يعلم أنه يستحق أكثر منه لكنه محتاج إلى نقود ليتدبر أمره في هذا المكان الجديد. عاد إلى المقهى الذي بقي قرابة الشهر يعمل فيه بتفان واجتهاد وأمانة. وبمرور الأيام، لاحظ صاحب المقهى أن هذا الفتى مميز سواء في أسلوبه وتعامله وكان صادقا جدا. كما لاحظ نباهته وذكاءه فبدأ يثق فيه أكثر. فسمح له أن يقابل الزبائن، ويقدم لهم الطلبات. كما

أصبح رسوله إلى البيت. وبعد مرور ما يقارب خمسة أشهر من الخدمة المخلصة في المقهى. استلطفه الرجل، بل لقد أحبه كثيراً. وفي يوم من الأيام كان فيه المقهى خاليا من الناس، قال له:

- تعال يا ولدي أجلس وأخبرني ما هي حكايتك بالضبط؟

فقال له: «يا عم، ترى لو أخبرتك حكايتي، ستجعلها سرا بيني وبينك وستساعدني؟».

- إن كانت لا تغضب الله فسأساعدك يا ولدي، فلم أر منك إلا الخير والصدق والنزاهة.

هنا اطمئن أكثر، وقال:

- أنا من إحدى قبائل البدو الرحل. ولقد هربت من أهلي حين رفضوا أن أدخل المدرسة لأتعلم. فهل تستطيع أن تساعدني؟ وأعدك بأني سأدرس في الصباح، وبعد المدرسة سأكون هنا في خدمتك.

وافق صاحب المقهى الذي كما أخبرتك كان اسمه راعد. وخليل راعد ليس اسم الدكتور الحقيقي. بل كان اسمه الحقيقي خليل إبراهيم. لكن صاحب المقهى اضطر أن يستخرج له وثائق جديدة بحجة فقدان الأصلية وكان في السابق هذا الإجراء ليس بتعقيدات اليوم. وأدخله المدرسة باسم خليل راعد»، هنا استوقفها قائلاً:

هل تعلمين ماذا أخبرني شابان عنه ؟ لقد أخبرني أن د. خليل بين فترة وأخرى كان يُصر أن يعمل جرسونًا في هذا المقهى. الآن عرفت السبب!!

أكملت د. رقية:

- كان د. خليل ينظر إلى ذلك المقهى بقدسية ويشعر أن مسار حياته تحول بفضل صاحب المقهى الذي يعتبره والده الحقيقي ويكن له كل الاحترام. ثم أضافت:

«ولكي لا أطيل عليك، لقد درس خليل بكل مثابرة وكان يعمل في المساء في المقهى خاصة وأن راعدا قد رزق بابنتين وهما متزوجتان، فكان يرى في د. خليل ابنا ساقه الله إليه. تخرج د. خليل من المرحلة الثانوية بنسبة عالية جدا مكنته من الدراسة في جامعة سوسة كلية الطب. واستأذن من راعد الذي يُناديه أبي، بأنه سيذهب ليكمل دراسته. وأثناء دراسته الجامعية زار بنقردان للاطمئنان على والده راعد مرتين. في المرة الثالثة عندما زاره، قال له راعد:

- يا بني أنت الآن أصبحت رجلا متعلما ولم أر منك إلا الأخلاق العالية والخصال الحميدة. ألا تفكر في العودة إلى أهلك والسلام عليهم وطلب المسامحة منهم؟

فأخبره أنه من المستحيل أن يجدهم. فهم لا يعيشون في مكان محدد، بل يتنقلون عبر الصحراء. قال له:

- ولكن ألا تخاف من القصاص الإلهي؟ ألا تخاف أن يفعل فيك ابنك مثل ما فعلت أنت بوالديك؟».

عندها علق د. رشيد:

- ربما لهذا السبب رفض د. خليل فكرة تكوين أسرة.

تابعت د. رقية حديثها بعد أن شاركته استنتاجه: «وعندما ذهب لزيارته للمرة الرابعة وجده قد توفي. وبعدها لم يذهب إلى بنقردان مرة أخرى. انكب د. خليل على دراسة الطب التي وجد فيها ما يشغله عن كل شيء. مستغلا ذكاءه وصفاء ذهنه في التبحر في جسد الإنسان واكتشاف أسراره وعجائبه. فكانت النتيجة كما لاحظت. كل شهاداته كانت امتياز. وكان نتاج تلك الجهود طبيبا بارعا جداً. لقد فرض تميزه منذ الأيام الأولى له معنا. لدرجة أنه استطاع التعامل مع حالات حرجة جدا، كان سواه من الأطباء لا يشجع بتاتا على التدخل الجراحي فيها نظرا لخطورة مثل هذه العمليات الجراحية على المريض».

(23)

طلب فنجانا آخر من القهوة، بينما اعتذرت ضيفته مكتفية بفنجانها الأول، ثم قال لها:

- الآن سندخل في الدائرة الضيقة. ألم يلاحظ أحد منكم شيئاً غريباً عليه في الأيام التي سبقت تلك الحادثة الشنيعة؟

مطت شفتيها، وصمتت متشاغلة بالمارة، ثم نظرت إليه وقالت:

- في البداية وبسبب هول الصدمة، كان الكل يكاد يُجمع على أنه كان طبيعيّاً جداً. المقدم منصور الذي أُوكل إليه التحقيق في القضية، سأل الجميع ذات السؤال. الكل كان يقول إنه لم يلاحظ أي شيء غير طبيعي عليه. لكنني بعد فترة، عندما استعدت شريط الأيام الأخيرة له، تذكرت أنه كان فعلاً لديه بعض التصرفات التي لم نألفها منه سابقاً. فقد تذكرت أني لاحظت عليه أكثر من مرة أنه كان يجلس شارد الذهن. وحتى حين كنت أُناديه، لا يستجيب لي إلا إذا هززته بيدي، ينظر إليَّ بقلق يخفيه سريعا وبذكاء. هذا شيء، أما الشيء الآخر الذي لاحظته عليه كذلك، فهو أننا اعتدنا كزملاء تناول الغداء في المقهى معاً على طاولة واحدة. أو طاولتين متجاورتين. لكن في الأسبوع الأخير لاحظنا أنه يأخذ غداءه ويجلس لوحده مكتفيا بالسلام علينا من بعيد. ولم يكن يشاركنا الحوار كعادته. ظننا أن شيئا ما يشغل باله. لدرجة أن

إحدى الزميلات علَّقت مازحة وبجدية مصطنعة: أنه صارحها بحبه لها، وأنه يفكر في الارتباط بها، لكنها مترددة، خاصة أنها ما زالت صغيرة لم تُكمل السادسة والأربعين بعد!!

ضحكا معًا، ثم قال وهو ينظر إلى فنجانها الفارغ:

- الآن لو أتينا إلى اليوم الأخير، هل تتذكرينه؟
- وهل مثل ذلك اليوم يُنسى؟ نعم أتذكره كما لو أنه يحدث الآن أمامي. لقد كان يوم ثلاثاء، في اليوم السابق له، عاينت مريضة مُسنة في حدود الثمانين عاما تعاني من مشاكل كثيرة ومزمنة في القلب. عندما شخَّصتُ حالتها، تبين لي أنها تحتاج لإجراء عملية استبدال صمام في القلب. أخبرتها بالأمر، وقلت لها: في هذا العمر، هذا النوع من عمليات القلب المفتوحة، خطير جداً على حياتها، وأن علينا الحصول إن رغبت في إجراء العملية، على موافقة الطبيب الجراح وطبيب التخدير ليقررا، كلا في مجاله، إمكانية إجراء العملية من عدمه. اجتمعنا نحن الثلاثة، بالمريضة وأتذكر اسمها ثريا، وكان رأي د. خليل أن بإمكانه إجراء العملية بشرط موافقة طبيبة التخدير؛ خشية أن تحدث مضاعفات بسبب التخدير. خاصة أن هذه العمليات بحاجة لتخدير كلي لأنها ستكون عملية قلب مفتوح. وافقت المريضة وعلقت ساخرة: على كل حال، أنا ميتة. فليكن لي شرف شجاعة اتخاذ القرار، والأعمار بيد الله. ثم قالت لها طبيبة التخدير: نتيجة الفحوصات

ستظهر يوم غد الثلاثاء وسنبت في الأمر. في يوم الثلاثاء وبعد موافقة طبيبة التخدير، قررنا أن تكون العملية يوم الخميس. وأبلغنا إدارة المستشفى بموعد العملية في يوم الثلاثاء ليبلغوا المريضة بذلك. أيضا في هذا اليوم حدث شيء آخر لفت انتباهي. اتصل بي وقال أنه يريد أن يلتقي بي فورا. وحين التقينا أعطاني مئة دينار، وطلب مني أن أدفع ما عليه، والمتبقي أقسمه على العاملين في المقهى. كما أنه في الساعة الرابعة والنصف عصراً اتصل بي، لكنني كنت بعيدة عن الهاتف. فأرسل لي رسالة نصية يطلب فيها مني الاعتذار للمريضة نيابة عنه لأنه لا يستطيع إجراء العملية لها. لم تكن تلك تصرفاته الطبيعية التي اعتدتها منه كزميلة مقربة منه. كذلك شكوك شرطة التحقيق بأنها جريمة قتل عندما رأوا الجثة تبعد عن المبنى قرابة ستة أمتار. لكنهم عندما كسروا باب الشقة، وجدوا الباب مقفلا من الداخل بمزلاج، وأن كل شيء طبيعي. فأغلقوا القضية على أنها انتحار سواء اقتنعوا بذلك أو لا».

قال د. رشيد الذي كان مصغيا إليها وكأنه يستمع إلى تراتيل مقدسة:

- سوف أسألك سؤالا أخيرا. هل تعتقدين أن د. خليل انتحر؟!

كان فنجان القهوة فارغا أمامها، فأدخلت سبابتها داخل الفنجان، وأخذت شيئا من الركوة ووضعته على طرف لسانها، وحدقت في

المصباح الصغير المعلق تحت المظلة التي تعلو طاولتهما، ثم قالت وهي تنظر إلى مجهول:

- لن أبالغ لو قلت لك إني سألت نفسي هذا السؤال ألف مرة، وربما أكثر. ولا يزال هذا السؤال يطن في رأسي كلما خطر د. خليل على بالي. لأن نمط حياته وأسلوبه وثقافته واتزانه ورجاحة عقله، لا توحي بأنه سيقدم على الانتحار. كما أننا طوال مدة عمله معنا، لم نسمع عن وجود عداوات بينه وبين أحد لنقول إنه قتل. وحتى بعد وفاته، لم يأت أحد يطالب بشيء مالي أو غيره. وإلى الآن صدقني السؤال نفسه معشش في رأسي، هل الدكتور خليل قُتل أم انتحر أم ماذا؟!

(24)

في الصباح كان جالسا في صالة شقته متشاغلا بمشاهدة برنامج وثائقي في التلفزيون، بينما هو في الحقيقة كان مستغرقا في كل كلمة قالتها ليلة البارحة ضيفته عن د. خليل راعد، متعجبا كيف لصبي صغير من البدو الرحل، أن يقرر قرارا شجاعا ومصيريا يغير مجرى حياته فيصبح أشهر جراح قلب في العاصمة. ثم، وبعد أن تم له ما أراد بعد كفاح طويل ومرير، يقرر أن ينهي حياته وهو في أعلى هرم النجاح. وتساءل كثيرا، هل د. خليل راعد قُتل أم انتحر، أم ماذا؟!!

فكر في أن يخبر زوجته بكل ما عرفه عن الساكنين اللذين سبقاهما في الشقة، خاصة أنها لاحظت عليه أكثر من مرة تغير طباعه وكثرة سرحانه وحديثه وهو نائم مع (موتائيل). لكنه عَدَلَ عن تلك الفكرة مخافة إصرارها على بيع الشقة، والانتقال إلى مكان جديد، بعد أن اعتادا على المكان وأحبا شقتهما وشابان بون كافيه. وازداد يقينا بعدم فتح الموضوع معها بسبب خوفه عليها، لأنها قد تفسر أي صوت تسمعه أو أي تهيؤ أو أي حلم على أنه جنَّ أو ما شابه ذلك. فرأى أنه من الأفضل لهما أن لا يخبرها.

بينما هو جالس أمام التلفزيون، جاءته زوجته وقالت له:

- اتصل بي أخي يونس، سيأتي وخديجة لنمضي الليلة معا في شابان بون كافيه. أخبر عزيزنا شابان أن يحجز لنا طاولة على ذوقه، لأنني أعتقد أن المقهى سيكون مزدحما هذا المساء.

سرت بهجة في روحه، وتنفس الصعداء فهو بحاجة إلى شيء يُخرجه من تلك المتاهة التي وجد نفسه مرميا في مركزها. فقال مبتسما:

- ممتاز. فرصة رائعة لنلتقي بالعزيزين يونس وخديجة، ونقضي معا أمسية جميلة في شابان بون كافيه.

ثم أخذ هاتفه وخرج إلى الشرفة.

عند حلول المساء توجه وزوجته إلى «شابان بون كافيه» قبل وقت وصول يونس وزوجته ليلتقوا جميعا هناك. كما توقعت زوجته كان المقهى مزدحما والشارع بشكل عام يضج الحياة والحركة وأصوات الباعة والأطفال. رآهما شابان ولوح لهما بيديه وأشار إلى الطاولة التي حجزها لهم، فلاحظ أنها نفس الطاولة التي كان يجلس عليها د. خليل راعد، وسرّه ذلك كثيرا. بعد ثلث ساعة تقريبا وصل يونس وزوجته وهما منزعجان من حادث سير وقع في (زفة عرس) ومات العريس وهو متوجه إلى بيت العروس. علقت خديجة بغضب وهي تبحث عن مكان لحقيبة يدها:

- لقد مات العريس من بين كل الذين كانوا معه إلى منزل العروس. قلبي مع تلك المسكينة التي تنتظر ليلة عمرها، لتفاجأ بهذا القدر القاسي. لماذا يا رب؟

التفت يونس إليه وقال:

- ما تعليق أستاذ الفلسفة في هذا الموضوع؟

أجاب وهو يقرص بسبابته وإبهامه حاجب عينه اليمنى:

- هناك أسئلة ليس فقط لا يوجد لها جواب، وإنما لا يجب أن تُسأل من الأساس.

قالت خديجة:

- بالراحة علينا على أساس أننا نفهم.

علقت زوجته:

- أعطنا مثالا يا رشيد على ما تقول.

قال لهم: «تخيلوا رجلا يقف أمام شجرة، ويسألها لماذا أوراقك خضراء؟ لماذا ثمارك حمراء؟ لا يوجد جواب. إما أن تقبل الشجرة بأوراقها الخضراء وثمارها الحمراء أو تصمت وتنصرف. كذلك الأقدار، إما أن نتقبلها كما هي، أو نعيش في دوامة أسئلة لا تلد إلا أسئلة أعمق منها. مسألة أنك تفسر كل شيء وتحلل كل شيء شائكة جدا وغير منطقية، كمن يدور في حلقة مفرغة لا يرى فيها غير ظله، ولا يسمع فيها سوى صدى صوته. هناك الكثير من الأشياء التي تحدث للإنسان غير خاضعة للتفسير والتحليل والتأويل. لماذا حدث هذا، ولماذا لم يحدث ذاك؟ مثل ما قالت خديجة قبل قليل عن حادث العرس، لماذا لم يمت شخص آخر غير العريس؟ بحيث لا تموت فرحة تلك العروس المسكينة

في ليلة عرسها. يد القدر لا تستأذن، ولا تقْبل النقاش. ولا تسمح لأحد أن يقول لها لماذا اليوم وليس غدا؟».

صمت الجميع لوهلة كانت لتطول لولا صوت كمانٍ أتاهم من طاولة قريبة بعض الشيء منهم، يجلس عليها أربعة شباب جاؤوا ليحتفلوا بعيد ميلاد أحدهم وطلبوا من شابان أن يشاركهم ولو لبضع دقائق. كان شابان مثل الطاووس يتنقل من طاولة إلى أخرى يلقي التحية على زبائنه. ويلبّي بسرور طلب التقاط صورة معه. وعندما اقترب منهم سألته د. منال:

- أخبرني بصراحة، ما شعورك عندما يطلب منك أحد التصوير معك؟
- صدقيني شعور لا أستطيع أن أصفه.

ثم أضاف وهو يبتسم:

- ربما لو كنت شاعرا لكتبت مئات القصائد. رائع جدا أن تصبح إنسانا يحبه الجميع. أفرح كثيرا عندما يأتي أحد ليأخذ صورة سيلفي معي. وأفرح أكثر عندما يأتي بعد يومين يعطيني الصورة ويطلب مني أن أعلقها في المقهى. كما ترون قد امتلأ المكان الذي خصصته لتعليق الصور. وحتى بعض الأشجار علَّقتُ عليها بعض الصور. وأنا سعيد جدا اليوم لأن المقهى ممتلئ، مع ذلك يأتي العديد من الشباب والفتيات، ليلقوا عليَّ التحية ويلتقطوا صورة معي تخلد تلك اللحظة التي بلا شك لحظة غالية عليهم. فنحن يا دكتورة لا نريد أن نُوقف الزمن إلا إذا كنا

سعداء في تلك اللحظة. هل تصدقون أن إحدى الفتيات قالت لي: لقد ذهبت للصالون لأتزين مخصوصا من أجل هذه الصورة.

فورا علق يونس وهو يغمز بعينه:

- لا تصدقها، عندها موعد.

قرصته زوجته في خصره، فضحك شابان ثم تابع كلامه:

- أشعر أني محظوظ جدا، وكأني أجني ثمار سنوات من الشقاء والتعب وجر تلك العربة -وأشار بيده إلى عربته التي اقترحت عليه د. منال أن يخصص لها مكانا في المقهى- وكل صاحب محل يطردني من أمام محله.

فوقفوا جميعا ليشاهدوا العربة التي بدت بعد أن علَّق شابان عليها مصابيح صغيرة ملونة، كالعروس. سأله يونس وهو ينظر إلى العربة:

- وهل توقَّعتَ وأنت تجرها، أنك في يوم من الأيام ستصل إلى هذه الشهرة وهذا المجد.

أجابه شابان: «لا، لكن كان لدي إيمان قوي رغم كل تلك الصعاب والعثرات، بأن أستمر في هذه المهنة».

قال د. رشيد: «أنت مكافح يا شابان، ونحن محظوظون بجيرتك وصحبتك ومشاركتك ثمار كفاحك».

فانحنى شابان وكأنه ممثل مسرحي يحيي جمهوره، وقال:

- وأنا أكثر حظا بصداقتكم وجيرتكم.

ثم ابتعد عنهم ملبيا نداء إحدى العائلات التي أرادت أن تلتقط صورة معه، تلبية لطلب طفلتهم ذات الأعوام الستة. استمرت السهرة إلى الساعات الأولى من الفجر. وتقريبا في الساعة الثانية والنصف صباحا استأذن يونس وخديجة بالانصراف. اقترحت زوجته عليهما إن يبيتا معهما الليلة، لكنهما اعتذرا لأنهما تركا طفليهما عند والدة خديجة. مكتفين بتلك السهرة الجملية. وقبيل ذهابهم قالت خديجة:

- بصراحة أنا أغبطكما على سكنكما في هذا المبنى الجميل، وبهذه الإطلالة الساحرة. فكم هو جميل أن تكون جارا لـ«شابان بون كافيه».

(25)

في صباح يوم الاثنين كانت زوجته قد سبقته إلى عملها. دخل المطبخ وأعد لنفسه فنجانا من القهوة ارتشفه وهو يتصفح هاتفه. ثم همَّ بالخروج لكنه تذكر شيئًا، فدخل غرفة المكتب وأخذ الصورة المطوية لقطعة البسكويت مع النمل وتوجَّه إلى الجامعة. كانت لديه محاضرتان. في المحاضرة الأخيرة، دخل القاعة وقسَّم الطلبة إلى ثلاث مجموعات وأعطى الصورة لأول مجموعة وأمهلهم عشر دقائق وطلب منهم وبسرية، عد النمل الموجود في الصورة وكتابة الرقم في ورقة صغيرة وتسليمها له. وهكذا فعل مع المجموعتين الأخريين. احتفظ بالورقات الثلاث في جيب قميصه. ثم بدأ المحاضرة التي كانت عن هوية الإنسان المعاصر. هل هي جنسيته أم ديانته أم لون بشرته أم جنسه. كان يتحدث عن الفرق بين الهويات الموروثة، والهويات المكتسبة. وأردف قائلا:

- الهويات الموروثة كثيرة جداً. من ضمنها الجنسية والديانة والعرق واللون وكل ما انتقل للإنسان من والديه ومجتمعة وبيئته. لكن يبقى للإنسان هوية أخرى. هوية يصنعها بنفسه، وهي ثقافته وطريقة تعامله مع الآخر. هذه هي الهوية الحقيقية للإنسان. ومعظم الديانات القديمة والحديثة، وحتى مختلف النظريات الفلسفية والاجتماعية تُؤكد على أن هوية الإنسان تبرز في وعيه وأسلوب تعامله مع الآخر لاسيما المختلف عنه. مؤكدا

أن الهوية الحقيقية هي المحصلة النهائية لثقافة الإنسان والمنعكسة على سلوكه. موضحا الفرق بين العلم بالشيء أيا كان، وما ينعكس من ذلك العلم على واقع الإنسان.

ثم أكد عليهم أن يميزوا بين العلم بالشيء فقط، والانتفاع بذلك العلم. إذ من السهل جداً العلم بالشيء، لكن مدى انعكاس ذلك العلم على الواقع وعلى السلوك هو الذي يحدد مدى استفادة الإنسان من هذه العلوم من عدمها. وليس العالم بالشيء، كالمنتفع به.

بعد أن انتهى من المحاضرة الثانية، كانت الساعة في حدود الرابعة، وفي أثناء خروجه من الجامعة، جلس على ذات الكرسي الذي وضع عليه قطع البسكويت في حديقة الجامعة. وأخرج الأوراق الثلاث التي سلمها له الطلبة. فوجد أن جميع الأوراق قد كتب عليها نفس الرقم «سبع وخمسون نملة». تذكر فورا الرقم الذي ذكره له موتائيل، والمطابق تماما للرقم الذي كتبته كل مجموعة من المجموعات التي تتكون من سبعة إلى عشرة طلبة.

ثم لا شعوريا بدأ يعبث بخاتم زواجه، فتذكر أن اليوم هو ذكرى زواجه الثلاثين. استغرق في تفكير عميق حول تلك السنوات الثلاثين التي مرت سريعا. أخرجه من تفكيره بعض الطلبة يمشون ويسخرون من صلع أحدهم المُبكر. فقال في نفسه: «لو كان لدي أبناء، سيكونون في أعمار هؤلاء الطلبة».

كر راجعا إلى البيت، وعندما اقترب من المبنى الذي يسكن فيه رأى شابان فلوح له بصورة النمل المطوية، رد عليه شابان التحية بيده وهو

يشير إليه بأن تفضل. وضع يده على صدره شاكرا شابان ومعتذرا منه. ثم دخل شقته. أقفل الباب وراءه، ووضع المفتاح في الإناء الخزفي ووضع الأوراق والصورة الملفوفة، على طاولة الكونسول. دخل المطبخ بقي مترددا بين أن يشرب قهوة أو شايا، ثم صنع له كوبا من الشاي بالنعناع وأخذه ليشربه في الشرفة. قُبيل جلوسه لاحظ أن شابان يشاهده. ابتسم عندما تذكر تفسير شابان للعالم العلوي والعالم السفلي. أما زوجته، فبعد مغادرة مستشفى شارل نيكول، ذهبت لتختار هدية له بمناسبة عيد زواجهما الثلاثين.

دخلت محلا لبيع الأقلام والكتب وبعض التذكارات التي وُضعت على جانبي المدخل كطعم يجذب السواح. اختارت قلما مزودا بمؤشر ضوئي (ليزر) يستخدمه المحاضرون للإشارة إلى جملة أو كلمة على شاشة العرض، وطلبت من البائعة تغليف الهدية. اختارت ورق تغليف جميل ووردتين بيضاء وحمراء، وضعتهما متعاكستين على العلبة التي فيها القلم. وقبل أن تغلق العلبة وضعت فيها بطاقة صغيرة كتبتْ عليها:

«زوجي العزيز رشيد . .
لا أدري ،
هل كانت ثلاثين عاما ،
أم ثلاثين قُبلة ،
أم ثلاثين رشة عطر ؟ ! !
رفيقة الأيام الجميلة بك ومعك ، منال» .

بعد أن انتهى البائع من تغليف العلبة، وضعتها في حقيبتها وتوجهت إلى شقتهما. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بقليل، وهي بداية وقت الذروة في شارع الحبيب بورقيبة. شابان في المقهى الذي بدأ يزدحم بمرتاديه، حين سمع صوت ارتطام شيء ما بالأرض. هرول إلى مكان الصوت وكانت المفاجأة التي جمدته مكانه.

جثة د. رشيد مهشمة على البلاط الاسمنتي. كان أول الحاضرين. ثم تحلَّق الناس حول الجثة الهامدة. كانت إحدى رجليه مثنية تحته، بينما الأخرى ممدودة قد سقطت منها فردة الحذاء على بعد مترين تقريبا. بدأ الدم يسيل مثل ثعابين تزحف في الأفلاج الصغيرة على البلاط الاسمنتي، لدرجة أن الناس تراجعوا للوراء موسعين الحلقة. شابان من هول الموقف تمسمر مكانه، فجاء اثنان من عماله وأرجعاه إلى الخلف، وأجلساه على كرسي مقابلا للجثة التي أسرع إليها بعض رجال الشرطة، وأحاطوها بشريط، مانعين الناس من الاقتراب منها أو لمسها.

بعد دقائق وصلت زوجته التي اندهشت من تجمهر الناس عند مدخل المبنى. سألت:

- ماذا حدث؟

قال لها أحد المتجمهرين:

- إن واحدا من سكان العمارة قد انتحر.

اقتربت، وعندما شاهدت الجثة، مادت بها الأرض ولم تتمالك نفسها من هول الصدمة، فأغمي عليها. وصل المقدم منصور وبمجرد أن شاهد الجثة، أمر أن تغطى دون أن تحرك. كان السقوط على الجهة اليسرى من

الرأس والدم ما زال يجري والجميع في فضول وذهول. بعدها أمر المقدم منصور الشرطة بأن تفرق الناس وتوسع محيط الشريط بحيث أصبح «شابان بون كافيه» داخل المنطقة المحظورة. ثم سأل عمن يعرف صاحب الجثة؟ فأشاروا إلى شابان.

توجه إليه فوجده فاتحا عينيه على اتساعهما كأنه تمثال، ودموعه تجري على خديه. سأله من أي طابق سقطت الجثة؟ ودون أن ينطق بحرف واحد، رفع شابان يده وقد فرد أصابعه الخمسة. تبادلا نظرات الحيرة معا. عندها طلب المقدم منصور فريقا فنيا مزودا بطائرة (درون) لأنه قرر أن يدخل الشقة من الشرفة التي كان بابها مفتوحا.

(26)

المقدم منصور في مكتبه يقلّب أوراق ملف القضية، حين استأذنه بالدخول رئيس الفريق الفني وكان يحمل ظرفا فيه قرصا صلبا. وضعه أمامه وقال:

- ستجد في القرص جميع الصور التي التقطناها بواسطة طيارة الدرون.

فتح المقدم منصور الظرف، واستخرج القرص ووضعه في جهاز كمبيوتر موضوع أمامه. مر على الصور جميعا ثم توقف عند صورة واحدة. كبَّر الصورة وأخذ يتمعن فيها؛ شاهد طاولة من الخيزران دائرية الشكل عليها زجاج وفوقها يوجد كوب شاي بقي منه النصف، وورقة مكتوب عليها:

إلى زوجتي العز. . . .

وحرف الزاي يمتد إلى آخر السطر. وكأنَّ شيئا ما قد جر القلم إلى نهاية الورقة. قال له رئيس الفريق الفني:

- هناك شيء آخر في الظرف.

فتح الظرف فوجد قلما في كيس بلاستيكي شفاف. قال له رئيس الفريق الفني: لقد وجدناه تحت الجثة عندما رفعناها.

في المستشفى انتبهت زوجته فرأت يونس وخديجة. سألتهما:

- هل كل ما حدث اليوم حقيقة أم أنه مجرد حلم؟

هزت خديجة رأسها بأن نعم؛ فدخلت في نوبة بكاء هستيري. جلسا عن يمينها وشمالها يهدئانها ثم طلبا الممرضة التي أعطتها حقنة مهدئة وقالت لهم ستنام لبضع ساعات وبإمكانهم الذهاب والعودة صباحا. فقررا البقاء معها. سمعا طرقا على الباب، فتح يونس الباب فرأى المقدم منصور. أخبره يونس بأنه أخوها وأنها نائمة، كما أن وضعها الصحي لا يسمح للاستجواب أو التحقيق. قال له المقدم:

- لم آت للتحقيق، أتيت لأطمئن عليها وأريد أن أخبرها بأننا سندخل الشقة معا. لأن شابان أخبرني بأنهما فقط من كان يسكن الشقة.

ثم ترك لهما رقم تلفونه وخرج. عاد بسرعة وفتح الباب. قال ليونس:

- عندي استفسار بسيط، هل كان د. رشيد يستخدم يده اليسرى؟

قال له يونس: نعم.

شكره معتذرا ثم انصرف. بعد أن أغلق يونس الباب، تبادل مع زوجته نظرة تعجب من السؤال!! عند باب المستشفى سمع امرأة من بعيد تهتف:

- المقدم منصور.

التفت فرأى د. رقية غريب، التي ما أن وصلت إليه حتى قالت وهي تحاول إخفاء لهاثها:

- تتذكرني؟

- نعم، د. رقية غريب. أليس كذلك؟

أومأت برأسها، ثم قالت:

- هل سمعتَ بحادثة الانتحار؟

- من أجل ذلك أنا هنا الآن. وعلى فكرة، قبل قليل خطرتِ على بالي. لأني قررت أن أعيد فتح التحقيق في الملفات الثلاثة لمصطفى أبرش والدكتور خليل راعد إضافة للملف الحالي للدكتور رشيد. وبالطبع سأحتاج إليك كثيرا.

ثم سألها: «من تظنين أنه من الممكن أن يساعدنا؟».

أجابته: «هل تذكر مجيدة أخت مصطفى أبرش؟».

- نعم، وأتذكر إلحاحها بألا أقفل ملف القضية وأن أخاها قُتل.

- هي إلى اليوم بذات القناعة، وربما تفيد في التحقيق.

رد عليها:

- ممتاز هل تحتفظين برقم هاتفها إلى الآن؟

- نعم.

- إذن سأحتاج إليه.

- ومن أيضا؟

- يوجد شخص بإمكانه مساعدتنا كثيرا، شابان. لأن د. خليل، ود. رشيد كانا من المقربين جدا منه ويعزان عليه كثيرا.

ثم سألته عن زوجة د. رشيد. فسألها: «أتعرفين د. رشيد وزوجته؟».

- تلك قصة سأحكيها لك في أقرب فرصة.

فقال لها: «عموما إنها نائمة الآن وبإمكانك العودة عصراً». ثم انصرف عنها.

(27)

شابان كان في بيته عندما فتح أحد أحفاده الباب للمقدم منصور. كان في وضع نفسي سيئ. جلس معه وقدم له التعازي. بكى بحرقة وقال بصوت مخنوق:

- لقد فقدت اثنين من أبنائي. مصطفى أبرش، لم أتعرف عليه كثيراً. فقط كنت أراه يدخل ويخرج من المبنى. لكن خليل ورشيد كانا ولديّ. وكم يعتصر الأسى قلبي حين أتذكرهما جثتين مهشمتين على الأرض. كان الله في عون د. منال خاصة أن الله لم يرزقهما أولادا لتجد السلوان فيهم.

قال المقدم منصور وهو يضع يده على كتفه:

- أشعر بألمك الكبير ومحنتك. الموقف صعب على الجميع، لكنه عليك أصعب. جئت أُعزيك، وأطلب منك المساعدة لأنني قررت إعادة التحقيق والتحري في القضايا الثلاث جميعًا.

قال له بعد أن مسح بأصابعه دموعه:

- أنا في الخدمة متى أردتم.

بعد الظهر، انتبهت د. منال وكان معها يونس وخديجة، ومعهما د. رقية التي بادرتها:

- الحمد لله على السلامة وأحسن الله لك العزاء.

نظرت إليها باستفهام. قال يونس:

- إنها د. رقية إحدى زميلات المرحوم، وقد أصرت أن تبقى معنا حتى تطمئن عليك.

فقالت د. رقية:

- بصراحة لقد نزل علي الخبر كالصاعقة. عموما أنا هنا للاطمئنان عليك، وقد أخذت من الأستاذ يونس رقم هاتفك.

ثم استأذنت منصرفة. بعد أن اطمأن الأطباء على صحتها، سمحوا لها بمغادرة المستشفى. فقال يونس:

- ستأتين معي إلى المنزل يا منال.

شكرته وطلبت منه أن يأخذها إلى الشقة. اعترضت خديجة عليها، وهي تتوسلها، على الأقل بضعة أيام يا منال. لكنها أصرت أن تذهب إلى الشقة. فقال يونس:

- إذا كان ولا بد من ذلك، فاسمحي لنا أن نكون ضيوفك.

قالت وهي تحبس عبرتها: «بيتكم يا حبيبي».

ثم قال لها يونس: «الشرطة تريد أن تكون أول من يدخل الشقة. وقد أعطاني المقدم منصور رقم هاتفه. سأتصل به لنلتقي عند مدخل المبنى».

حين وصلوا إلى شارع الحبيب بورقيبة واقتربوا من المبنى. التفتت إلى «شابان بون كافيه» فرأته مغلقاً والكراسي مقلوبة على الطاولات بشكل جنائزي حزين. ما زالت المنطقة محاطة بالشريط الذي وضعته

الشرطة. وممنوعـًا المرور أو الاقتراب منها. كان المقدم منصور ينتظرهم عند مدخل المبنى مع اثنين من أفراد الشرطة الجنائية. لما رآهم تقدَّم منهم وقدم التعازي لها. دخلوا إلى المبنى، وعندما فتحت حقيبتها لتخرج المفتاح، رأت الهدية النائمة فتمتمت في نفسها: «لماذا هذا اليوم بالذات يا رشيد؟».

مسحت دموعها وفتحت الباب الذي كان آخر من أغلقه زوجها. وقُبيل أن تهم بالدخول، قال المقدم منصور بمنتهى الاحترام:

- هل تسمحين لنا أن نسبقك في دخول الشقة؟

تراجعت للوراء، وهي تشير لهم بالدخول. عندما دخلت بعدهم، بدا لها المكان موحشا وكئيبـًا. وشعرت بثقل شديد يجثم على قلبها. فبكت بحرقة محتضنة خديجة. دخل المقدم منصور وتبعه الشرطيان. وجدوا كل شيء في الشقة طبيعيا. ولا أثر لشيء يوحي بأنها جريمة قتل أو سرقة، ولا آثار لعراك. توجه المقدم منصور بعد معاينة الشقة، إلى الشرفة. كان كل شيء فيها كما شاهده في الصورة تماما، ما عدا الورقة التي لم يجدها. جال ببصره في الشرفة فبدت له كأنها مكان يعرفه منذ سنوات. وأنه كثيرا ما أمضى مساءاته فيها. بأرضيتها الفسيفسائية الرائعة، وأثاثها الأنيق، وشجيراتها الخضراء اليانعة. حتى زقزقة عصفوريها ولونهما والقفص الذي يحبسهما، كأنه هو من انتقاها وأحضرها إلى هذه الشرفة. ودون أن يحرك أو يلمس شيئا، جلس على أحد الكرسيين، فأحس بدفء جسد

رجل قام قُبيل ثوان قليلة. تأمل كوب الشاي نصف المملوء، فشعر بأن نصفه في معدته، ولا يزال طعم مرارة الشاي على آخر لسانه. كما شاهد بوضوح غريب بصمات أصابعه على مقبض الكوب الذي بدا له أنه من اشتراه، ويعرف اسم المحل، والبائعة التي أشار لها إلى كوب آخر، لكنها أحضرت خطأ هذا الكوب، فلم يشأ أن يُحرجها. ثم ومن خلال الدربزين الزجاجي رأى المنظر البهيج لشارع الحبيب بورقيبة في ذلك الوقت، ومن ذلك الارتفاع الساحر، وكأنه منظر رآه مئات المرات. فجأة؛ تجمد كل شيء أمامه!

23 مايو 2020